الفصل الرابع

شبوة

إن وادي القصعة الضيق مـا هو في الواقع إلا دلتا لوادي «المعشار» الذي يجري متجاوزاً «شبوة» ليصب مياه سيـوله مقابل رمال السبعتين. ويكتسي الحزام الرملي في هذه النقطة بمتراس أو (سور) من الصخور تشكل سلسلة تلال «القويد» المنخفضة التي تقف تلال «النسر» الصغيرة في شرقها وغربها على كلا جانبيها مثل القلاع والحصون. وتمتد الدلتا على يسار «القويد» والرمال المجاورة لها، بينما على اليمين تسير بين حافة «القويد» التي تعود ثانية إلى الداخل وتل «النسـر الشرقي» لتشكل القناة الواسعة التي تقع فيها حقول «جربة النسر» الزراعية. وإلى الجنوب في اتجاه شبوة تضيق دلتا قصعة نحو قـمتها، ومن ورائهـا تجري قناة «معشـار» في مجرى واضح المعالم ذي ضـفتين عاليتين من الطمي والحصى والكثير من الأشجار الكثيفة.

وحينما كنا نرقد في المعسكر للراحة وقت القـيلولة لاحظنا رجلاً وحيداً يقترب منا محتطياً جـمله. واتضح عند وصوله أنه كان «مـبارك بن صالح» -ابن عم مـرشدنا سعـيد-، والذي كان قد اخـتير في «العَـبْر» ليرافق جـماعة الإبل التـابعة لنا. وأثناء العاصفـة في الليل كانوا قد تاهوا عن آثار سيرنا في الحزام الرملي، وبقـوا في مخيم لهم حتى ارتفع القمر بدرجة كافية ليضيء لهم الطريق. وبرزوا بصورة أو بأخرى من «الرمـة» مقـابل «الرُميد» حيث سـاروا على طول الوادي ليقيـموا مخيـمهم في درب جربة النسر.

ومن هناك رآنا رقـيبـهم ونحن نصل إلى الـدلتا، وأرسل مـبـارك إلينا لمعرفـة الأوامر. وقـد أعدناه مرة أخرى مـحملاً بتـعليمات تقضي بـأنه يجب على رفاقنا أن يتجاوزونا بأسرع فرصة ممكنة للوصـول إلى شبوة، حيث إننا نريدهم أن يصلوا قبلنا. وهكذا واصلوا السيـر حتى جاؤونا في الوقت المناسب. وبعد وقـفة قصيـرة للقهوة،

استمروا في رحلتهم تجاه مقصدنا. وسوف تستغرق الرحلة منهم حوالي ساعتين أو ثلاث ساعات حتى يصلوا شبوة، بينما نستطيع نحن أن نقطعها في أقل من ساعة. ولذلك مكثنا في المخيم حتى الساعة الرابعة والنصف تقريباً قبل أن نستأنف رحلتنا.

وعند وصولنا إلى هنا لاحظنا عدة قطعان من الأغنام ترعى في المنطقة المجاورة لنا، ولكنا لم نعثر على أي أثر لكائنات بشرية. وبعد أن استقر بنا الحال ظهرت أمامنا امرأة عجوز شبه عمياء. وكانت أخت «ابن عفيشة» الشيخ الرئيس للعنصر البريكي في شبوة. وقالت: إن مرافقيها الصغار قد هربوا من الخوف عند اقتراب سياراتنا. وإنها نفسها قد انبطحت أرضاً تحت شجرة لترى ما قد يحدث، وإن أغنامها قد تبعثرت وإنها لا تستطيع جمعها مرة أخرى لشدة عماها. وقد قام سعيد بمساعدتها في هذه المهمة، وسمع منها -كما سمع جماعة الإبل أيضاً من الرعاة الذين قابلوهم أثناء التوقف- أنه في الصباح الباكر كان هناك إطلاق نار مكثف حول شبوة. وعلمنا فيما بعد أنه كان هناك قتال بين فصيلي «آل زيد» و «العويرة» من قبيلة «الكرب» ولأن توسط جماعة «البريكي» في القرية قد أدى إلى التوصل إلى هدنة وضمان انسحاب المهاجمين من آل زيد. ولقد كانت تلك أنباء تبشر إلى حد ما بالخير لنا، ولكن سعيداً كان يعتقد أن مثل هذا الحادث عادي جداً بدرجة لا يمكن أن تثير أي قلق. وقد طلب من المرأة العجوز -عمته- أن تحضر لنا الحليب، وأصبحنا في الوقت المناسب مستعدين لنأخذ الطريق. في الوقت الذي بدأت تصلنا عاصفة رملية كثيفة كانت تتجمع ببطء تجاهنا من ناحية جنوب شبوة أثناء فترة ما بعد الظهر، في البداية لم تكن شديدة العنف، بيد أننا لم نكد نقطع ميلين من مسيرتنا إلا ووجدنا أنفسنا في وسط خضمها. وكانت المنطقة كلها قد اختفت في ظلام العاصفة واضطررنا إلى تغيير اتجاهنا إلى السهل المفتوح بعيداً عن الوادي لنتفادى الجداول والقنوات في المنطقة المجاورة له. وبعد وقت قصير كانت العاصفة قد خمدت وبدأنا مرة أخرى نرى معالم

الأرض. وألقت فتاة وحيدة، -كانت ترعى غنمها- التحية على سعيد، وتوقفنا لتجذب أطراف الحديث معها. فقد كانت إحدى أخواته، وكانت لا تزال فتاة يافعة، بها مسحة من جمال، تفيض بروح الدعابة والمرح. وكانت طبعاً لم تر سيارة أبداً من قبل، وقد تراجعت خطوات قليلة للخلف عندما بدأت تشغيل محرك السيارة مرة أخرى لمواصلة الرحلة.

وكنا الآن على مقربة من هدفنا. فالقبة البيضاء لضريح «محمد بن بريك» قد برزت بوضوح أمامنا. ولم يمض وقت وجيز إلا وصادفنا أول آثار لعمران قديم، وهي بقايا بناء لقناة مائية. وخلفها تقع أرض «مراحة» للزراعة الموسمية بها قنوات ري رملية ضحلة أعاقت تقدمنا شيئاً ما. واقتربنا ببطء من القرية، ونراها الآن تنتشر في غير نظام على طول قمة وحافة سلسلة جبال صخرية منخفضة يطوقها جزئياً في الطرف البعيد جرف شاهق من الطمي المتراكم. وقد انطلق مبارك يسبق جماعة الإبل ليزف بشرى وصولنا، بينما كان سعيد معي في السيارة. وبدا الفضاء المنبسط -الذي اعتقدت أنه سيكون موقع مخيمنا- عند قاعدة السلسلة يعج بالبشر. فقد خرج السكان عن بكرة أبيهم ليكونوا في شرف استقبالنا، وهم يلوحون ببنادقهم. وربما كان عددهم يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فرد. وتجمعت النسوة في ملابس معتمة كحلية تزين أسطح المنازل ليشهدهن الاستقبال. والتف الأطفال زرافات ووحدانا حول المنحدر. وخشعت الأصوات فلا تسمع إلا صوت أزيز محرك السيارة، ولا تبدو على الجموع الحاشدة أي دلالة على السرور أو الغضب. وساعتها ندمت على عدم إعطاء جماعة الإبل وقتاً كافياً للوصول هناك قبلنا، ولكن الشمس كانت قد مالت للغروب، ووصولنا في الظلام لن ينفع شيئاً. وأعترف أنني شعرت بالغضب بشكل واضح، ولكن سعيداً شد من أزري وشجعني. وقال لي: «استمر في قيادة السيارة إلى حيث يقفون». واضطررنا إلى التعامل مع حفرة ضحلة ببطء يمنة ويسرة. وكان يبدو أن السكان يقفون في ما يشبه الصف. وقد أوقفت السيارة على بعد عشرين ياردة منهم،

وفتحت البـاب وترجلت منها. وفعل سعـيد الشيء نفسه. ووقفت السـيارة الأخرى بجوارنا وقذفت ركـابها من بطنها. وكنا سبـعة في مجموعـنا. وأمام صف القرويين لاحظت أن اثنين منهم عليهما ملامح الأهمية والمكانة، وتقدمت قُدماً لتحيتهم. وكان أحدهم ذا قسمات قاسية ولحيـة مثل أسنان الشوكة، وقبضت يده، ولكنه دفعني بقوة للخلف في رفق تجاه رفاقي. وأدركت بطريقة أو بأخرى أنه كان يجب علينا أن نشكل صفـاً واحداً أمـام سياراتـنا مقابل القـرويين. وبينما نـحن واقفون هناك فـي فوضى واضطراب لاحظت حركة بين مضيفينا، والتف الصف الطويل إلى اليمين، ثم استدار لليسار ، واتجه للـيسار مرة أخرى ليمروا من أمـامنا وخلال ذلك كان كل رجل منهم يسلم على واحد منا باليد، حيث يضع راحة على راحة والأصابع منحنية باستدارة في مصـافحة رخوة لينة بدلاً من قـبضة التـسليم، ويُقبِّلون الهواء الواقع بين الشـخصين باستنشاق مسموع الزفيـر وقد حدثت هذه المراسم كلها في صمت مهيب، ولم ننفك من هذا الطابور إلى مجموعـات غير رسمية لتبادل الحـديث إلا بعد أن انتهت تماماً. لقد كان ذلك بحق نسخة مثيرة مغايرة لفكرة حرس الشرف. فبدلاً من أن نتقدم نحن لنتفقـد حرس الشرف جاء الحراس لاستـقبالنا، فكأنما كان الحرس هو الذي يتـفقدنا. وكان الحرس نفسه لا يضم فقط مندوبين عن القرية، بل يشمل جميع السكان شاهرين سلاحهم. وهذا الترحيب الحار الذي قوبلنا به قد أدخلنا بطريقتهم الديمقراطية في كرم القرية، فقد أقـر كل رجل منهم الآن بمسؤوليته عن سلامة ضـيوفه ورفادتهم. وكنت قد تـنبهت مـسبـقاً إلى أن اسـتقـبالنا سـيكون مصـحوباً بإطلاق النار من الأسلـحة الصغيرة، ولكني طلبت -عن طريق مبارك الذي كان قد سبقنا- أن يتم إلغاء ذلك في جميع الأحوال، نظراً لطبيعة زيارتي الخاصة غير الرسمية، وقد قُبلت رغبتي هذه كما ينبغي. ولا يوجـد شيء أمقتـه أكثر من إطلاق النار بـلا هدف في الفرح، ولا يمكن للمرء أبداً أن يتنبأ باتجاه طلقة من طلقات الرصاص، ولربما طاشت إحداها، وكثيراً ما تقع حوادث مفـجعة كهذه بالتأكـيد. ففي أبها، على سبيل المثـال، عام ١٩٣٤م كان

الأمير سعود[1] قد انتهى من تفقد قوات احتشدت هناك لحرب اليمن وكان عائداً إلى مقره في الحصن الكبير بمصاحبة «نيران فرح» وكان قد اقترب تقريباً من الباب عندما سقط العبد حارسه الشخصي، الذي كان يسير خلفه مباشرة، ميتاً. ولم يعلم أحد حتى الآن من الذي أطلق الرصاصة، وما إذا كانت أُطلقت بسوء نية أو بإهمال. وفي المملكة العربية السعودية -ما عدا المناسبات الخاصة جداً- يثنون الناس بقوة عن إضاعة الذخيرة سدى، ولكن في كافة هذه المناطق الجنوبية فإن الثمن الباهظ نسبياً لا يبدو أنه يعوق هذا الشكل الخاص من التبديد أو الإسراف.

وفور انتهاء استقبالنا، اختلطنا مع الجموع المحتشدة التي كانت -بالطبع- مأسورة بالسيارات إلى حد كبير. واكتشف الأطفال الذين لم يعتادوا قط على رؤية المرايا، لدهشتهم أن هذا المعدن المصقول يعكس صورهم. ولاحظت أن محمداً وسعداً فيما يبدو يلقيان محاضرة عن كيفية تشغيل السيارات لجمهور من الكبار. وترتوني مع مجموعة من شيوخ القرية نتحدث في السياسة والآثار. وكان كبير المتحدثين في جماعتي ذلك الشيخ ذا اللحية المتشعبة مثل الشوكة الذي قد ذكرته قبل، صالح بن حزيق، من جماعة آل عويرة من الكرب. وبالإضافة إلى حياته البدوية العادية فقد كان فخوراً جداً بمكانته الحضرية التي يتبوؤها كصاحب منزل في شبوة، حيث كان يشارك -بفضل وضعه القبلي- في قيادة سياسة القرية مع إخوان عفيشة، سالم وعلي، من عشيرة آل بريك. ولم يكن صالح -على الرغم من أنه كان الرئيس الفعي لآل عويرة- الرئيس الأسمى نظراً لأن ابن عمه الذي كان في الثمانين من عمره الذي وهن عقله -وكان أيضاً والد زوجته-، ناصر بن قطيان، كان لا يزال حياً ومعترفاً به كأكبر عضوٍ في العشيرة. وكان لهذا الشخص الأخير ولد أيضاً، يدعى محمداً، والذي كان يبدو لي أنه لا يميل تماماً إلى إقرار أحقية صالح -على الرغم من أنه

(١) المقصود هو جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز -ولي العهد آنذاك-. (المراجعون).

لم يكن فقط أصغر منه في العمر- بل كان بالتأكيد أدنى منه قدراً. وكنت سأراهما كثيراً خلال الأسابيع القادمة في مواقف مختلفة، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون عندك أي شك في أن صالحاً كان مقبولاً بصورة عامة كحاكم فعلي للقبيلة والمنطقة. لقد كان من الواضح في جميع الأحوال -في هذه اللحظة وفيما بعدها- أن صالحاً قد تولى أمور القيادة في تحديد موقف شبوة تجاه زيارتنا.

وفي شبوة، مثلما حدث في العَبْر، كانت أخبار قدومنا قد سبقتنا بزمن طويل، وكان أمام الناس الكثير من الوقت ليحددوا ما إذا كانوا يرغبون في إقامة علاقة أشد قُرباً مع ابن سعود أم لا. وقد أخبرهم مبارك بأننا قادمون بعده مباشرة واستقلونا بشرف عظيم. ولذلك لم أندهش كثيراً -على أي حال- عندما سمعت صالحاً في هذه الدقائق القليلة الأولى من تعارفنا يعرب عن أمله في ألا نتعجل الرحيل. وتحدثوا عن ابن سعود بإعجاب ومودةٍ غير زائفة، وفي اللحظة نفسها تقريباً أشاروا بصورة واضحة إلى الحالة المستديمة للنزاعات الداخلية الضروس التي يعيشون فيها. إنها القصة المعتادة للعداوات الدموية والثأر الذي لم ينته، وفي هذا الصباح كان لديهم مايذكرهم فوراً باضطراب الأمن بصورة حادة عند هجوم «آل زيد» الذي ذكرناه سابقاً.

إنهم يريدون الهدوء والسلام حتى يزرعوا أرضهم بقليل من الأمل في أنهم سوف يتمتعون بالحصاد بدون إزعاج. ولقد قال صالح إنهم ليسوا فقط الوحدين الذين يتذمرون من ذلك، بل جميع القبائل في المنطقة المجاورة. وأردف قائلاً: «إنهم جميعاً يريدون مقابلتك ورؤيتك، ويريدون خطابات من ابن سعود تضمن أمنهم من أي هجوم». ولم أشك لحظة من هذا اللقاء الأول في أن مثل هذه الأمور قد نوقشت بالفعل قبيل قدومنا. وعلى أي حال اندهشت قليلاً من التحدث معي بصراحة فور أن وطأت أقدامنا هذه الأرض. وليس عندي بالطبع أي سلطان لكي ألزم الملك بأي سياسة أو إجراء. ولكني اقترحت بالفعل أنهم بوسعهم أن يختاروا مندوبين عنهم لإرسالهم لمناقشة الأمور مع الملك، ويستطيع هؤلاء الممثلون أن يسافروا معي أثناء

رحلة العودة. ومن هذا الاقتراح نشأ قرار صالح نفسه بأن يرافقني عند العودة إلى نجران ثم إلى مكة. وقد انطلق سعيد فوراً بعد وصولنا ليرعى شؤون متطلبات التموين. وبعد ذلك بدقائق قليلة كان قد أحضر أربع خراف إلينا كهدية من أهل القرية ، بينما وصل الحطب والماء فور وصول جماعة الإبل. وتركنا نصب الخيام حتى الصياح، ولكن عبود بدأ عمله فوراً في اثنين من الخراف ليجهز لنا العشاء، وفي الوقت نفسه كانت نيران القهوة،واحدة عند كل مجموعة من جماعتنا، تزودنا نحن وضيوفنا بالمشروب المنشط الترحيبي. واجتمع خلق كثير حولي عندما فتحت المذياع، وهم ينصتون مشدوهين للنشرة العربية من الأخبار. وتداخلت العوامل الجوية، الناتجة عن لعاصفة الطويلة، في البث الإذاعي شيئاً ما . ومع ذلك سمع سكان شبوة، لأول مرة في حياتهم، بعض الأخبار عن أنشطة العالم البعيد مثل القلاقل في أسبانيا، وعن المشاكل في فلسطين حيث تنهمك القوات البريطانية في أعمال عدائية ضد إخوانهم العرب. وبالنسبة لهم، مع نزاعاتهم الضئيلة، ولكنها مزمنة، كانت الحروب تبدو على الأرجح شيئاً جوهرياً ومن طبيعة الأمور.

وانتظرنا حتى الحادية عشرة والنصف إلى أن نودي بالعشاء الذي كان وجبة ترحيبية شديدة الروعة من لحم الضأن والعصيدة وجلست مجموعة كبيرة حول أطباقنا، وبدا أن ضيوفنا من أهل القرية كانوا من النوع النهم الأكول. فليس من المعتاد عندهم أكل اللحم كثيراً، فالحليب وعجينة الدُخن هما طعامهم الرئيس. وبعد الطعام انصرفوا آفلين ، وكنت سعيداً أن أقبع بمفردي في مكاني، ولكن جاءت كلاب القرية لتتفحص العظام الباقية من وليمتنا. ولاحظت -عندما كنت أهيئ نفسي للنوم- أنها قد رفضت بازدراء أن تأكل العصيدة التي انسكبت من الصحون. وعند منتصف الليل سجل مقياس الحرارة معي ثمانيًا وثمانين درجة وكانت السماء ملبّدة بالغيوم الكثيرة. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل يرتفع إلى ما يصل ٨٤°، وقد بلغ

الحد الأقصى خلال إقامتنا المؤقتة لمدة أربعة أيام في شبوة مئة ودرجتين. وصل الارتفاع هنا إلى حوالي ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر أو أكثر من ذلك بقليل .

وابتداء من حوالي الخامسة في الصباح التالي استمر الزوار من القرية في الوصول بأعداد متزايدة دائماً. وعند وصولنا في الليلة السابقة شعرت بشكل غريزي أن شبوة سوف تخيب آمالنا. والآن وفي وضح النهار كنت قادراً على أن أحصي المناطق المحيطة مباشرة بمخيمنا، وكانت كلها كئيبة بما فيه الكفاية. فنحو الشرق يمتد خط طويل في اتجاه شمال جنوب، ولمسافة أميال قليلة يجري جرف «الحوق» مع ألسنته المنتظمة في صفوف. ويقع بينه وبيننا وادٍ تمر قناته الرئيسة قريباً من معسكرنا، اسمه «المحباض» وهو فرع من وادي شبوة الرئيس وهو يعرف باسم «العطف» (أي القناة) فوق النقطة التي يتشعب عندها إلى شعبتين ليمر على كلا جانبي سلسلة جبال شبوة. والفرع الغربي هو «المعشار» الذي ذكرناه سابقاً. ويصرف الجرف مياهه في محباض خلال عدد من القنوات القصيرة، ويكتسي الوادي كله بمظهر الوعورة تسبباً لوجود سلاسل التلال الرملية المتراكمة والقنوات التي تتناثر فيها شجيرات السنط وقليل من نخيل الدوم اليابس. وعلى الجانب الآخر من معسكرنا تمتد الحافة الشرقية لسلسلة شبوة حوالي ميل إلى الجنوب من الشمال. وفي مضيق منخفض بين قمتين في السلسلة يقع قبر (محمد بن بريك) البارز ذو القبة لبيضاء، وكان شيخاً كبيراً في تلك المنطقة المحلية. وعن يساره نحو الجنوب تمتد قرية «هَجْر» الصغيرة البائسة، والتي تتكوّن من حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين منزلاً مبنياً من الطين والحجر، وفوق رابية من السلسلة. وعلى اليمين -عن قرب- كانت هناك هضبة صغيرة مستديرة يعلوها متراس منخفض من الحجارة، وتجاه الشمال منه والجنوب من «حَجْر» تمتد السلسلة لمسافة ما وهي مغطاة جزئياً بأنقاض مبانٍ حجرية. وتحت هذا المتراس عند قاعدة السلسلة تقع مقبرتان صغيرتان تفصلهما عن بعضهما مسافة قصيرة. وفي

المقبرة البعيدة عنا يرتفع ضريح «عبدالقادر» ذو القبة، وكان ابن شيخ ورع[1]، وسط قبور أعضاء الأسرة الآخرين. وكانت المقبرة الأخرى لدفن جثث البدو أو الحجاج الذين لا ينتمون لعائلة الشيوخ.

وكان ذلك كل ما أمكن رؤيته من معسكرنا، وبدا لي أن المتراس المذكور أعلاه سيكون على الأرجح النقطة المثالية لعمل مسح عام للآثار التي قيل لي إنها تقع على الجانب البعيد من السلسلة. وقد صدق ظني ، ولكن انتظرت حتى حوالي الساعة الثامنة صباحاً لأتقدم في ذلك الاتجاه. وكان من الواضح أنه من المفيد لي أن أتفادى إظهر أي شوق لرؤية الآثار، ومكثت مشغولاً دائماً بتيار الزائرين الذي يستمر في التدفق . وكان الكثير منهم غلمانًا صغارًا يأتون ومعهم أشياء غير مهمة من الآثار، مثل كسرات من الرخام وغيرها، ولكن واحداً منهم فقط، وهو الابن الصغير لعلي ابن عفيشة نفسه، قدم لنا شيئاً يستحق النظر فيه، وهو بلاطة رخامية شديدة الروعة بها نقش محفور يعلوه صورة لراكب جمل مجسَّم تجسيماً خفيضاً. وقد اشتريت ذلك بريال واحد (حوالي ١ و ٦ دولار) ووضعتها جانباً بجوار صناديقي، بعد أن نسخت النقش. ولم تمض دقائق إلا وعاد الصبي قائلاً إن النقود ليست كافية. ولم يكن من الحكمة في شيء أن أقدم له المزيد، واعتقدت أن الآثار ربما تكون مليئة بمثل هذا النوع من الأشياء. ولذلك أعدت البلاطة للصبي واسترجعت ريالي. إن امتلاك النقش، الذي كنت قد نسخته فوراً، قد توازن إلى حد ما مع شعوري بفقدان شيء هام، ولكي سرعان ما بدأت أندم على ذلك الأثر. وقبل أن أغادر شبوة بأيام قليلة فيما بعد رأيت الصبي وعرضت عليه ريالين، ولكن إحساسه بالقيمة قد زاد، وهكذا اضطررت في النهاية أن أمضي بدونه. وعلى كل حال لم أستطع نسيانه، وخلال رحلة عودتي من حضرموت بعد ذلك بحوالي شهر أشبعت شوقي إليه بإضافته إلى مجموعتي «كهدية» من والد الصبي.

---

(١) هو عبدالقادر بن محمد بن بريك، جد آل بريك في شبوة، وسيأتي ذكرهم لاحقاً. (المراجعون).

وبعد أن قضيت وقتاً معقولاً في التأخير واستضفت زواري بالشاي والقهوة عندما كنا نتحدث عن شبوة وما جاورها قلت: «إن الوقت قد حان لنبدأ زيارتنا للآثار». ورافقني الشيخ صالح وابن عمه محمد بن ناصر وسعيد ومبارك وعدد هائل من الآخرين، منهم أربعة رجال نجديين من حرسي الشخصي مدججين تماماً بالسلاح ضد جميع الحوادث الطارئة، إلى المتراس حيث قضيت حوالي الساعة أو أكثر دون الملاحظات والاتجاهات والتقط الصور. وهاهو حقل الآثار كله ينبسط أمامنا، ضئيلاً وهزيلاً بصورة مخيبة للآمال. وهناك ضريح ثالث، عبرة عن قبر ذي قبة بيضاء لابن يوسف، وهو حفيد (محمد بن بُريك) وخليفته، ويقع على بعد نصف ميل إلى الجنوب الغربي مع قرية «المعوان» تمتد نحو الشمال منه على طول الضفة اليسرى لوادي المعشار. وبين المعوان وهجر توجد أنقاض آثار تغطي مرتفعاً قصيراً ومنحدره النازل للأسفل نحو منجمين للملح باتجاه الشمال. وعلى هذه السلسلة توجد مجموعة من الأكواخ، مبنية من الصخور بصورة جزئية من مواد عتيقة، وتمثل حي المثناه وهو ثلث العناصر المكونة لشبوة الحديثة. ولا يوجد مبنى واحد قديم سليماً، ولا حتى عمود واحد من المعابد الستين قائماً. إن عاصمة الحميريين القديمة كانت مجرد أخلاط من الأنقاض المتهاوية. وكل ما أستطيع أن أرجوه أن يكشف فحص الآثار بصورة أكثر تفصيلاً عن شيء جدير بالاهتمام، وبينما كان هذا الأمل يحدوني تقدمت خطوات لأهبط المنحدر تجاه حافة حقل الآثار. وفي هذا الوقت كان جمع غفير من الناس قد ألحقوا أنفسهم بنا، وساروا وراءنا، ولاحظت أنه في قرية «هَجْر» وحولها تجمعت أعداد كبيرة من الناس، بمن فيهم الكثير من النساء على أسطح المنازل، في مجموعات ليشاهدوا هذا اللهو.

واللهو الذي كانوا يأملون أن يشاهدوه لم يكن معروفاً لي في تلك اللحظة. ولكن لم نكد نصل المنخفض الضحل الذي يفصل السلسلة عن أقرب جزء (السور الشمالي الشرقي) من الآثار إلا وتعالت صيحات التحدي والتحذير من أحد تلك

المجموعات في القرية فوقنا وعن يسارنا. وكان كلٌ من صالح بن حزيق وسعيد البريكي معنا، بيد أنه كان من الواضح وجود جماعة من السكان ينظرون لسبب ما بارتيب واستنكار لما سيحدث من انتهاك آثارهم البكر. ولم أستطع أن أسمع بالضبط ما كان يقوله المعارضون، ولكني لم أكن أريد أبداً أن أكون سبباً لقتال بين العشائر أو لنشوب شجار في القرية. وأكد لي صالح وسعيد أنه لايوجد شيء يثير القلق، وكان من الواضح تفوقنا في العدد بكثرة ترهب أي معارضة، ناهيك عن الحجم العظيم لجماعتي المقيمة في الخيام خلف القرية. وعلى أي حال فقد كنت حريصاً أشد الحرص على تفادي أي أحداث مؤسفة، ولم أكن في عجلة من أمري.

إن الأرض المنخفضة هنا كان ينتشر فيها أعداد صغيرة من القبور الحديثة، وقد جلست على واحد منها، وأعلنت أنني لن أتقدم خطوة واحدة إلا بعد استعادة التآلف والانسجام. وبعد ذلك تقدم صالح إلى جماعة المعارضة ليحاورهم وعاد فوراً مع قليل من زعمائها ليواصل المناقشة والحوار بحضوري. وكان رئيسهم، والأمر المهم أنه كان بن عمه محمد بن قطيان. وكانت مظلمته أننا لم نطلب إذناً منه لنزور الآثار، حيث إن جزءا عظيماً منها، مثل منجمي الملح الاثنين اللذين يقعان إلى الشمال من المدينة القديمة، يبدو من الواضح أنها تخضع في حقوق الملكية، لفرع «القطيان» من قبيلة «آل عويرة». ولم أكن قد تعرفت عليه إلا في هذا الصباح فقط عندما زارني في المخيّم، ولم أدرك في ذلك الوقت وضعه في القبيلة. وربما أكون قد تعاملت مع صالح بطريقة مكشوفة جداً على أنه هو الرئيس أو الشيخ، وانطلق محمد فيما يبدو مقطب الجبين ليدبر أي وسيلة يحبط بها خططنا. ووافقت الآن بشكل طوعي بمافيه الكفاية على أنه إذا كان هناك أي جزء من الآثار يخصه فلن أزور ذلك الجزء بدون إذنه. واقترحت -على كل حال- أن مثل هذه الصعوبات يمكن التغلب عليها بمرافقته لنا. _كان يبدو أنه يميل إلى الموافقة على ذلك، وتلخص الجدل إلى نزاع بالأصوات العالية بين عشائر القرية عن كيفية تحقيق زيارتي لحقل الآثار كله بدون أن يتعدى أو

يتدخل أعضاء أي عشيرة منهم معي على ملكية عشيرة أخرى. وقلت لهم إن لم يستطيعوا الموافقة على برنامج محدد فسوف أعود للمخيّم وآخذ فوراً ترتيبات مغادرتي من وسطهم.

وبعد ذلك سرعان ما كوفئت على صبري بإعلانهم أن جميع الأطراف قد تنازلت عن حقوقها العشائرية ووافقت على مرافقتي بصورة جماعية في المنطقة كلها. وكان هذا أسوأ قرار غير مناسب من وجهة نظري ، على الرغم من أنه ليس من الخير إضاعة مزيد من الوقت في الجدال حول الأمر. وانتفضت قائماً من على شاهد القبر وتحركت نحو الآثار بصحبة ما يبدو أنهم جميع السكان الذكور في القرية، كباراً وصغاراً. ودخلنا الآثار من خلال بقايا متساقطة من بوابة في السور الشرقي، الذي يمكن التعرّف عليها فقط بخط محدد من الأنقاض مغطى بالتراب. ولا أعلم إذا كانوا يتوقعون أن يروني وأنا أخطف الذخائر المخفية من الذهب والأحجار الكريمة من أقبية المدينة، ولكن الحشود اندفعت تطوقني إلى درجة أنني لم أعد أستطيع الحركة إلا بشق الأنفس . وإذا التقطت من الأرض قوقعة أو خرزة أو خلخالاً مكسوراً أو شظية من آنية خزفية أقاموا سوراً بشرياً حولي وهم يلتفون في دائرة يلهثون، وربما يعتقدون أن هذا الشيء التافه سوف يتحول باهتمامي به إلى جنيهات ذهبية. وإذا توقفت للنظر في مدماك من الحجر من المباني القديمة ويشكّل جزءاً من منازلهم الحديثة من الحجارة المكوّمة فوق بعضها ساورهم الشك في أنني أتكهن بوجود كنز تحته. وهكذا سار الأمر، في حين ألقى بعضهم بنفسه في اللعبة بحماس يستحق الثناء عليه وبدؤوا جمع ما يشبه المواد التي شاهدوني ألتقط مثلها وأضعه في جيبي. وتقدم الحشد لتعفير معي بهذه الطريقة، يكنسون سطح الأرض كلما ساروا، وكل دقيقة أو نحوها يحضر أحدهم لي حفنة من الأشياء لأفحصها. وكان بعضها مجرد نفايات يجب رميها، والبعض الآخر كان عبارة عن المخلفات العادية من كسور وأساور أو خلاخيل وخلافها التي كنت أحتفظ بها في جيوبي، بينما كان المتبرعون يتخيلون في أذهانهم

أنني سأقدم لهم هدايا عوضاً عن ذلك في الوقت المناسب. وكان من المدهش حقاً كيف تذكر كل رجل أو صبي بدقة الصنف الذي أعطاني إياه.

وطول الوقت الذي مكثته في المعسكر هذه الأيام كان هناك غدو ورواح دائم من تجار الآثار، وعندما رحلت كانت الأرض حول خيمتي قد اكتست بالمعثورات المرفوضة المبعثرة هنا وهناك، مثل شواهد قبور حديثة مخلوعة من المقابر وكسر من الرخام غير منقوشة وبعض الأشياء غير المهمة الأخرى. ولم يقم أي متعهد باسترداد القطع التي كان أحضرها مرة أخرى. فإذا رفضتها فإنه سوف يقذفها باستياء.

ولكي أعود للآثار، فقد تسلقت المنحدر من البوابة الشرقية، متجاوزاً مسجداً حديثاً -على الرغم من أنه مهجور الآن- مبنياً على قواعد قديمة من كتل صخور جيرية مشذبة تشذيباً جيداً، حتى وصلت إلى سلسلة الجبال الرئيسة التي سميتها مؤقتاً بمنطقة القلعة. وهنا -كما في أماكن أخرى- لم يوجد مبنى واحد سليم قائم منتصب من للباني القديمة إلا وهو كتلة عظيمة من المنازل المهدمة ومداميك قليلة من البناء الحجري غير مهدمة تغطي الجزء الشرقي من القمة والذي يمتد على طول جانبه الشمالي، ونحو الغرب من المسجد، طريق طويل مستقيم يصل إلى أقصى طرف التلال عند حصن حديث نسبياً يشرف على الآبار في أسفل وادي المعشار بالأسفل ويؤدي إلى شبوة من الغرب والجنوب. وعندما سلكت هذا الطريق المرتفع، والذي وفر لي إلقاء نظرة شاملة على حقل الآثار الممتد أسفل المنحدر من سلسلة الجبال ومن قاعدتها تجاه الشمال أصبحنا في منتصف الطريق إلى أعظم أثر في شبوة -الذي سميته مؤقتاً- رغبة في تسمية أفضل، «معبد عشتارت».

وما زال القليل من آثاره قائماً بما فيه الكفاية، ولكنه ربما يكفي فقط لإعطاء المرء فكرة عما كان عليه حال المعبد في العهود الماضية عندما كانت شبوة عاصمة الحميريين. ومن المفترض أن الطريق كان يمر خلال رواق مدخل المعبد الذي تمتد جدرنه الرئيسة محاذية للجانب الجنوبي للطريق، فيما يقابله على طول الجانب

الشمالي تقع أربع قواعد أعمدة مربعة من الحجر الجيري تفصلها عن بعضها مسافة قدرها قدمان ونصف القدم. وكل قاعدة من هذه القواعد تبلغ اثنين ونصف قدم مربع وبها منخفض دائري بالوسط قطره حوالي قدمين، وهذا يبدو أنه يبرهن بالتأكيد على أن الأعمدة كانت مستديرة. وإلى الجنوب من كل قاعدة، وعلى مسافة ستٍّ بوصات تقع كتلة مستطيلة من الحجر الجيري طولها قدمان ونصف القدم -من الشرق إلى الغرب- وعرضها قدم واحد ملاصقة للطريق مباشرة، وهي غامضة الهدف، على الرغم أنها كانت جزءاً من دعامة لجدار مقوس خلف الأعمدة مباشرة. والمسافة بين أول قاعدتين للأعمدة -في الطرف الشرقي- مملوءة بدرجات سُلَّم، بينما توجد علامات غامضة على وجود درجات سُلَّم مشابهة بين زوج القواعد الوسطى. وربما تكون هذه الحالة تنطبق تماماً على الزوج الغربي، ولكن لم تبق أي علامة على وجود درج في هذه الحالة. وأخيراً يوجد كتلة ضخمة من الحجر الجيري متصلة مع الحافة الشمالية لقواعد الأعمدة على بعد ستة أقدام إلى اتجاه الشرق منها، عرضها ستة أقدم -من الشرق إلى الغرب- وطولها عشرة أقدام، وتشكل على ما يبدو مزلقانًا، ويفترض أن تكون هناك كتلة مماثلة على الجانب الآخر، عند رأس سلَّم عريض يؤدي إلى المنحدر النازل إلى الطرف الجنوبي من الشارع الرئيس في المدينة، هذا الدرج، الذي لم يبق منه شيء الآن، يفترض أن يكون عرضه حوالي أربعة وثلاثين قدماً والمسافة من أعلى إلى أسفل تبلغ خمسين قدماً تقريباً حتى رأس الشارع. ووجود علامتين كبيرتين مستطيلتين على السطح العلوي للمزلقان يوحي بقوة شديدة إلى احتمال وجود تمثال ضخم أو أي زينة هائلة أخرى على كل من المزلقانين، على حافة صف الأعمدة، لتشكل ممراً مهيباً إلى المعبد.

وعلى الجانب الآخر من الطريق، الذي يبلغ عرضه سبعة أقدام ونصف القدم بين الحافة الداخلية لقواعد الأعمدة والسور، ما تزال توجد ثلاثة مداميك من كتل بناء مشذبة تشذيباً جيداً ولكنها ليست كبيرة، في سور المعبد الشمالي قائمة بطول يبلغ

حواي خمسة وخمسين قدماً، وتتداخل مع الأعمدة والمزلقانات على كلا الجانبين. وفي مكان يقع تقريباً مقابل وسط صف الأعمدة يوجد المدخل الحقيقي للمعبد بجوار سلم يخترق السور. ويبلغ عرض المدخل حوالي ثلاثة أقدام، والدرجة الأولى من السلم -بالعرض نفسه- تبرز من خط السور في حرم الطريق، والدرجة الثانية مستوية بمحاذاة السور مباشرة، ولا تزال توجد درجتان أو ثلاثة إضافية مع بقايا السور الذي كان يصطف معهم على كلا الجانبين. وإلى الشرق من هذا القسم الذي يبلغ طوله خمسة وخمسين قدماً من سور المعبد، ويصل طوله لحوالي اثني عشر قدماً، والذي كان في وقت من الأوقات يتصل فيما يبدو بالسور الرئيس من خلال قسم معاودة الدخول والذي لم يبق منه شيء الآن، على كل حال. والطرف الغربي من سور المعبد -كما هو باق الآن- يستمر بقنطرة ضحلة في السور تنحدر باتجاه غرب - جنوب غرب وتتكون من طبقتين من كتل الحجر الجيري الضخمة نسبياً، والمشذبة تشذيباً خشناً، هي أطول من خط السور بحوالي عشرين قدماً وبالتالي تغطي واجهة المعبد - إذا كانت جميع الأقسام التي ورد وصفها هنا جزءاً منها- طولاً إجمالياً قدره سبعة وثمانون قدماً تقريباً.

والجداران الشرقي والغربي من المعبد يمتدان فيما يبدو من أطراف الجدار الشمالي إلى أعلى المنحدر حتى قمته، والذي يبلغ ارتفاعه حوالي عشرين قدماً فوق مستوى الطريق. وعلى أي حال لم يبق أي أثر من كلا الجدارين قائماً اليوم ولا حتى شيء من البناء الداخلي للمعبد الذي يمكن رؤية أرضيته حتى القاع الصخري ذي الغطاء الرقيق من التراب والحجارة فقط. وما تبقى، في الحقيقة، عبارة عن جزأين كبيرين من إناء ضخم من الحجر الجيري، يمثل إلى حد ما مزهرية ضخمة، ولكن يحتمل أن يكون مستخدماً لحفظ الماء أو الزيت. ولم يبق شيء من الجدار الخلفي للمعبد -الذي كان يحد فيما يبدو قمة السلسلة الجبلية المتجهة صوب الجنوب- إلا

بعض الكتل الكبيرة من البناء الخشن المتناثر حول قمة المنحدر الجنوبي. ومن الواضح أن باقي الجدار قد انطمر منذ زمن بعيد في أسفل الوادي.

وعلى كل حال يوجد جزء من السور ذي طبقات خشنة متشابهة من الحجر الجيري والحجر الرملي، يبلغ طوله سبعة عشر قدماً وبارتفاع أربعة مداميك إضافة إلى مدماك واحد مشابه بطول سبع أو ثماني خطوات تقريباً صوب الشرق على طول القمة، وكلاهما ربما كانا يشكلان جزءاً من أسوار المعبد. والجزء الأكبر، ومعه سور جانبي ملاصق له، يدعم السقف المسطح المزخرف برصيف دائري من الحصى الكبير. ويبلغ قطر الدائرة حوالي سبعة أقدام، ولكني لم أستطع تخيل أي وظيفة كانت تؤديها تلك الدائرة.

هذا هو معبد عشتارت العظيم كما يوجد اليوم، وقد وصفته بأكبر قدر من التفاصيل حسبما استطعت أن أحصل عليها. ولا أستطيع أن أرتاب في أنه كان أكثر المباني أهمية في شبوة، ويشرف على المدينة بكاملها، ويؤثر تأثيراً عظيماً في الزائرين الذين -عندما يدخلون من البوابة الرئيسة في السور الشمالي الغربي -سوف ينظرون مباشرة من الشارع الرئيس إلى السلم الكبير المؤدي إلى المدخل ذي الأعمدة والذي تحفه على كلا الجانبين تماثيل مهيبة أو بوابات عظيمة. وخلفها يرتفع مبنى المعبد الرئيس شامخاً حتى أفق سلسلة الجبال، وبه قدس الأقداس والغرف الفرعية على السطح المستوي للقمة.

ومن هذه القمة توفر للمرء إلقاء نظرة بأفضل طريقة ممكنة على المدينة القديمة وما جاورها، والتي سوف أمضي الآن قدماً في وصفها بالكامل. ولقد استخدمت حتى الآن في وصف المعبد الجهات الأصلية للبوصلة بغرض التسهيل، بيد أنه من الأهمية أن ندرك أن المعبد حقيقة يتجه بالضبط نحو الشمال الغربي أسفل الشارع الرئيس إلى البوابة الرئيسة التي تقع تقريباً في وسط السور الشمالي الغربي. ويبلغ حافة طول مرتفع المعبد (أو القلعة)، التي تشكل الطرف الجنوب الشرقي غير المسور

من لمدينة وتهبط بانحدار شديد على الجانب الجنوبي الشرقي إلى وادي المعشار مقدار ٢٠٠ قدم إلى أسفل، ٤٧٥ ياردة. وفيما عدا بعض الالتواءات الصغيرة، فإن طول السور الشمالي الغربي يبلغ تقريباً القدر نفسه، بينما يبلغ عرض المدينة عبر خط الوسط من البوابة الرئيسة حتى المعبد ٢٧٥ ياردة، وهي أيضاً تقريباً مساوية لمسافة طول الأسوار الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية. وهكذا تكون مساحة المدينة تقريباً عبارة عن مستطيل تام والمساحة المسطحة تصل عملياً إلى سبعة وعشرين فداناً. ويمتد محورها الطويل جنوب غرب - شمال شرق، وهي محاطة على الجانبين الشرقي والجنوب الغربي بوادي المعشار. أما الجانبان الآخران فيتجهان في شبه دائرة من التلال الصخرية المنخفضة التي تشكّل سلسلة تلال دائرية، يحدها وادي المعشار على طول الطرف الغربي. هذه السلسلة تبرز لمسافة ما في اتجاه جنوب، جنوب شرق وراء الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة بين قناتي المشعار والمحباض التوأمين ، وتنتهي عند نقطة تفرع وادي العطف الرئيس. ويلتف فرع المحباض تدريجياً مع ثنية السلسلة ليتصل مرة أخرى بمعشار وراء طرفها الشمالي الغربي. وبالتالي تشكل شبوة والسلسلة «جزيرة» بين القناتين. وإلى الشمال من المدينة القديمة في الزاوية الداخلية من السلسلة يقع منجمان اثنان للملح اللذان يشكلان المصدر الرئيس أو الاقتصادي الوحيد للمنطقة المحلية، بينما يوجد منجم ثالث، توقف العمل فيه، في طية من طيات سلسلة «القلعة» إلى الغرب على مسافة قليلة من المعبد. ويجري عبره وَهْدٌ -والوهد هو الوادي الصغير الضيق شديد الانحدار- منحدر من السلسلة، وهذا ما ساعد على دفن آثار لمدينة تحت قشرة من الطين المالح.

وفي الركن الجنوبي الشرقي من المدينة القديمة يختل تماثل شكلها المستطيل نتيجة وجود ممر ضيق عرضه حوالي عشرين ياردة وطوله ١٢٠ ياردة، ويبرز نحو الشمال الشرقي إلى أسفل السلسلة الرئيسة. هذا الممر يحيط نتوء مناظر له في سور المدينة، ويبدو أنه كان يربط المدينة بضاحية ضخمة والتي تمتد من نقطة تبعد قليلاً إلى الشمال

من المتراس الذي أشرنا إليه سابقاً، على طول قمة ومنحدرات السلسلة الرئيسة حتى تصل لمسافة قريبة من ملتقى المعشار والمحباض. هذه الضاحية ليست مسوّرة، على الرغم من أنها محمية على طول قناة المعشار بجرف حاد الانحدار يبلغ طوله ثلاثين قدماً والذي يشكّل ضفتها اليمنى. أما على جانب المحباض فإنها تنحدر إلى أسفل بصورة رقيقة حتى حافة الوادي. هذه المنطقة كلها تتناثر فيها الآثار القديمة، والجزء شديد الأهمية منها يتوّج أعلى نقطة في الضاحية بالضبط مقابل أو شمال شرق الممر القادم من المدينة الرئيسة.

وتوحي الآثار الموجودة فوق هذه الربوة بأن القصر الملكي ربما كان قائماً هنا، وأن الممر المسوّر ربما كان مصمماً لتوفير مدخل مباشر للملك وصحبته إلى المدينة المسوّرة. وإلى الجنوب قليلاً توحي بعض الآثار المعينة بوجود معبد صغير، ربما كان مصلى ملكياً صغيراً، ولكن باقي منطقة الضاحية يبدو أنه كان يضم المساكن الخاصة للمسؤولين الرسميين والمواطنين الأوفر ثروة، وربما فيها حدائق في تكوينات طينية تمتد من بيوتهم إلى حافة قناة المحباض. وبأقصى ما يمكن أن يحكم المرء من خلال تناثر الأنقاض، فإن هذه الضاحية يبدو أن طولها كان يتراوح ما بين ٨٠٠ و ٩٠٠ ياردة، ومتوسط عرضها حوالي ١٠٠ ياردة، أي إن إجمالي المساحة المسطحة يبلغ حوالي ثمانية عشر فداناً. ومن الواضح أن الضاحية قد نمت وتوسعت لاحقاً أكثر من المدينة الرئيسة، وحقيقة أنها غير مسوّرة، على الرغم من وجود القصر الملكي وبيوت الأغنياء، مما يشير إلى فترة من استقرار الحكم والأمن العام.

إن قرية هَجْر الحديثة، وهي عبارة عن قرية صغيرة مكونة من حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين منزلاً، تحتل موقع القصر القديم، الذي ما زال قدرٌ كبيرٌ من أحجاره المقطوعة باقياً في مكانه ليشكّل جزءاً من الأكواخ التي شيّدها أحفاد محمد بن بريك. وفي الواقع توجد بقايا كثيرة من المباني القديمة اللافتة للنظر في هذا الموقع أكثر من أي جزء آخر في المدينة الرئيسة، وتم البناء بالأسلوب نفسه المتبع في معبد عشتارت،

طوب من الحجر الجيري صغير ومشذب بشكل جيد ومبني بطريقة حسنة. وبالنسبة للبيوت الحديثة، حيث لم تدخل الأسوار الأثرية القائمة على أنها جزء منها، فإنها مبنية إلى ارتفاع يبلغ حوالي الثلث من أرضية مكونة من كتل صخرية صغيرة ومقطوعة بصورة خشنة، في حين تتكون الأجزاء العليا من الطين بعوارض خشبية لدعم الأسقف المسطحة. وفي المنخفض أسفل «هَجْر» وامتداداً منه إلى أعلى المنحدر حتى قرب كتف سلسلة القلعة تقع قرية صغيرة أخرى مكونة من منازل حديثة، تسمى المثناه وهذا الاسم يضم أيضا كامل سلسلة المعبد والآثار الموجودة عند قاعدتها.

والبيوت هنا تبدو أنها مبنية من المواد التي تم تكسيرها ونقلها من المباني الأثرية التي ما تزال بعض أسوارها وقواعدها باقية كنواة للأكواخ. وقد ذكرنا من قبل أن المسجد هنا لم يعد مستخدماً، إلا أنه يوجد به -علاوة على بقايا المبنى القديم المحتفظ بنسيجه المهجور- فوهة بئر بجوار المدخل، وهي الآن مسدودة بالحصى والتراب ولكنها كانت بلا ريب في يوم ما مصدراً لإمداد المياه. وفي الجهة الأخرى المقابلة، عند الحافة السفلى لقرية هجر يوجد مسجد آخر، الذي يخدم سكان كلاً من «المثناه» و«هَجْر» في مناسبات الأعياد والاحتفالات، على الرغم من أنه -كما يتضح- لا تؤدى الصلوات اليومية العادية فيه، والتي تُؤدى - أو تُهمل - في البيوت الخاصة. إن الصلاة الجماعية -باستثناء المناسبات الخاصة- ليست نمطاً شائعاً بوضوح في جنوب الجزيرة العربية خارج المدن الكبرى. إن مسجد هَجْر ذو بناء حديث نسبياً، بدون أي علامة على وجود قواعد قديمة أو أي مواد أخرى ما عدا كتلتين اثنتين من الحجر الجيري تحمل نقوشاً حميرية طويلة، ومن الواضح أنه تم نقلهما إلى هذا الموقع من أحد المعابد أو المباني الأخرى.

وعلى الجدار الجنوبي الغربي يوجد نقش عربي يبين تاريخ البناء بأنه: "يوم الإثنين -على ما يبدو اليوم الأول من- شهر الفطر -شوال-، ١٦ بعد ٣٠٠ بعد ١٠٠٠" (أي ١٣١٦ بعد الهجرة). والمحراب على زاوية ٣٠٦°، عبارة عن كوة

ضحلة في الجدار ، بارتفاع قدمين وعرض خمس عشرة بوصة، وبه رسم كاريكاتوري غريب لبشر يشبه الدمية محفور بطريقة خفيفة في الوسط. وعلى كلا جانبي المحراب توجد رسومات للزينة توحي أنها مثل أعواد الشموع. وتوجد قرية ثالثة، هي المعوان تكمّل ثلاثية شبوة الحديثة. وتقع خارج الركن الشمالي - الغربي من المدينة القديمة على طول الضفة اليمنى لمعشار، ويعود وجودها لتاريخ قبر شيخها الولي، ابن يوسف، حفيد محمد بن بريك. وهي أصغر نسبياً من هَجْر، ولها المظهر الحقير والمتواضع نفسه، حتى بدون هيبة بقايا الأحجار من البناء القديم.

ومن الواضح أن المثناه ليست أكثر من امتداد لـهَجْر لتسع فائض سكانها، ولكن بين الأخيرة والمعوان لا يوجد إلا تاريخ طويل من الحقد والعداء، وربما يكون هذا شيئاً طبيعياً بدرجة كافية بين المتنافسين على رعاية الحجاج والزائرين. وفي الوقت الحالي أخذ نجم هَجْر في اللمعان، ويضطر سكان «المعوان» أن يتحسسوا أسلحتهم كل ليلة قبل أن يخلدوا إلى النوم. وتحتفظ كلا القريتين بمراقبة دائمة لتفادى الهجمات المفاجئة، وعندما عدت من حضرموت في زيارتي الثانية وجدت أن معظم سكان شبوة قد انتقلوا إلى المراعي ليستفيدوا من الأمطار الأخيرة. ولكن قد يتخلف أربعة رجال في «المعوان» لحماية القرى من الأعداء. أما الهجرة الجماعية من «هَجْر» فكانت أقل وضوحاً نتيجة لوجود نصف جماعتي بالمخيّم الذين يجب ضيافتهم وتزويدهم بالحاجات والإمدادات الضرورية أثناء غيابي. وفي البداية ابتعد سكان المعوان عني، وعزلوا أنفسهم مني، على أساس أنني ضيف مناوئ، ولكني قمت بزيارتهم، بعد أن أرسلت رسولاً قبلي ليخبرهم بمقدمي، وذلك بعد تجوالي بين الآثار في اليوم الثاني. ولقد استقبلوني باحترام ملائم، ولكني لاحظت أن الشيوخ قد تجمعوا لاستضافتي في بيتٍ كبير يقع حقيقة خارج قريتهم وجثموا على زاوية سور المدينة القديمة الذي مازال جزء عظيم منه يقف سليماً في هذه النقطة. وكان -على الأرجح- يساورهم القلق من احتمال دخول أتباعي من «هَجْر» في وسطهم. وعلى أي حال، في زيارتي الثانية جاء

ممثلوهم إلى مخيمنا وأحضروا معهم هدية من الغنم واقترحوا، عند مقابلتهم معي، أنه يجب إحالة نزاعات شبوة الداخلية إلى ابن سعود ليصدر حكماً فيها. وفي المقابل قمت بزيارة ثانية لهم، ولم ينقص كرم ضيافتهم لنا شيئاً، على الرغم من أنهم كانوا يبدون لي أشد فقراً من أهل «هَجْر».

إن أيام الخميس والجمعة هي الأيام المحددة لزيارة الحجاج لأضرحة البريكي[1]. وعند وصول الزوار يسرع حرس الأضرحة إلى تزويدهم بالطعام لإعاشتهم أثناء مدة بقائهم. هذا الطعام وغيره من الاحتياجات الأخرى يتم منحها هبة، ولا تباع. وقد وفرت الخبرة الطويلة بلا شك تقديراً لطيفاً لوضع الحجاج المالي. فكل شخص يتلقى شيئاً ما أقل مما يتوقع أن يعطى مقابله، والفائض يعد بالطبع نظير الفضل المكتسب بزيارة الأضرحة. وأي محاولة لتقليل قيمة الهدايا المقدمة يتم تثبيطها بحزم، حسبما اكتنفت بكلفة باهظة، على الرغم من أن مخالفتي لم تكن متعمدة. فكما ذكرت سابقاً قُدمت لنا أربعة خراف عند وصولنا، وفي اليوم التالي سألت سعداً عما يعتقد أن تكون قيمها. وبعد تفكير قال لي: إن القيمة هي ١٢ ريالاً، وعلى الفور أرسلت لهم ١٥ ريالاً كهدية مني مقابل هديتهم. وعادت النقود لي مع تلميح مهذب بأن الأغنام كانت هدية من القرية، وليس من الممكن قبول ثمنها من ضيف كريم، وأنهم قد اشتروا حقيقة هذه الأغنام على وجه الخصوص من البدو بسعر ٤٫٥ ريال لكل خروف !! وهذا يجعل السعر الإجمالي ١٨ ريالاً، وقد تضايقت قليلاً من سوء حسابات سعد، ولكني أرسلته في الحال ومعه ٢٠ ريالاً، وجاء على الفور العمدة وأتباعه لزيارتي زيارة رسمية ويتمنوا لي طول العمر والرخاء. وعند عودتي من حضرموت تكررت الهدية، ولكنهم اقترحوا أنني ربما أفضل ثوراً سميناً طيباً، والذي كانوا يعتقدون أنه ربما يكون أكثر ملاءمة لمثل جماعتي -والمتطفلين عليها-. وقد أعربت لهم عن تفضيلي لحم الضأن.

---

(١) إن البناء على القبور، وشد الرحال إليها، وتعظيم الأموات الذين لا يملكون لأنفسهم أو لغيرهم نفعاً ولا ضراً ليس من الدين الإسلامي في شيء، وإنما هي من البدع المستحدثة. (المراجعون).

إن تاريخ بيت الأولياء في شبـوة يكتنفه قليل من الغموض . فـقد كان بريك، وهو السلف الذي أخذت عشـيرة آل بريك اسمها منه، والد محـمد، الشيخ الولي، والذي ربما يكون في الواقع أول من استقر على أنقاض شبوة. ومن المؤكد أن العشيرة قد تمتعت ذات يوم بفـترة من السلطان والنفوذ الزمني، وكانت الشحـر الميناء البحري المهم تخضع لحكم أحـد أفرادها قبل الاحتلال الكثـيري لها والذي دام فترة قـصيرة. وقد تهاوى هذا الاحـتلال تحت أول ضربات القعيـطي. ويقال: إن أسلاف آل بريك من أصل الأشراف، وهناك اعـتقاد عـام بأنهم ينحدرون من «آل حامـد» أشراف بلدة «السيح» في الأفلاج الذين ينحدر منهم أيضاً ابن إسماعيل وأشراف رنية. ولذلك ربما يكون ما حـدث في الواقع أن «أشراف آل حامد» هؤلاء، عندمـا انطلقوا راحلين من اليمن منذ حوالي ٢٠٠ عام مضت بحثاً عن المغـامرة في صحراء الجزيرة العربية، قد خلفوا وراءهم بعثات في مختلف الاتجاهات، جاءت إحدها واستقرت في حضرموت بينما استقر الآخرون في «رنية» و «الأفلاج».

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن قبيلة الكرب تدعي ارتباطها المتقل من جيل إلى جيل مع قوم «رنية» من غير الأشـراف، على الرغم أنه من الصعوبة أن تشك في أن اسمهم مشابه تماماً لقبـيلة «كرباني، قتبان Carbani» الذين قال عنهم بليني إنهم استقروا في حضرموت في عهده. وإذا كان الوضع كذلك فإن الحركة الأصلية ربما كانت في الاتجاه المعاكس من حضرموت إلى رنية، أي حركة «الكرب» مع حلفائها الأشراف تجاه المناطق الأكثر غنى ورخاء في الـشمال أو بعيداً عن الضغط في الجنوب. ومـهما يكن من أمر فإن الارتبـاط الزمني والروحي بين شبوة ورنيـة والأفلاج علامة واضـحة في التقـاليد المحلية، بينمـا يعد ارتباط عشـيرة آل بريك بالكرب حقيـقة محلية واقـعة. ولذلك من المحتمل أن يكون الأشراف عند وصـولهم منطقة شبوة قد أصبحـوا أتبـاعاً -كما أنهم ما زالوا حتى الآن- لقبـيلة «الكرب» حسبما يوحي بذلك تسميتـهم البديلة «بالفقراء»

و«المشايخ»، وهكذا أضحى أشراف آل حامد مستقرين في حضرموت بصفتهم «فقراء» (أو مشايخ) من قبيلة الكرب، بينما في أيام عزهم العظيم استطاعت مجموعة منهم - وهي آل بريك- أن تقيم حكماً قبلياً باسمها، والذي أضاف له المستقبل مهمة روحية أكثر منها مهمة زمنية.

ومهما يكن من أمر فإنه بدءاً من بريك فقط أصبحت شجرة نسب العائلة واضحة بقدر معقول. وقد رُزق بريك، بمحمد الذي أسس نظام حكم ما زال موجوداً في شبوة وتوفي وهو يتمتع بسمعة طيبة من التقوى والورع، وترك وراءه ثلاثة أولاد أسماؤهم على التوالي هي: «شيخ» -الذي ما زال اسماً شائعاً في حضرموت- و«عمر» و «عبدالقادر». ويبدو أن الأخير قد مات بدون ذرية، لأنه اختفى من الرواية ولم يعد له ذكر إلا ضريحه الذي ما زال قائماً يذكرنا بمروره في هذه الحياة الدنيا. وفي الحقيقة يحتمل أن يكون قد خَلَف والده في المهام الروحية دون أن يترك أثراً ذي بال في هذا المجال، ومن المحتمل أيضا أنه قد مُنح شرف بناء ضريح له -أصغر من ضريح والده- لمجرد أنه كان ابن الشيخ الأول وخليفته. أما عن «عمر» فلم تحتفظ التقاليد المحلية بأي شيء عنه إلا حقيقة أنه مدفون بجوار والده في الضريح بقرية «هَجْر». وكذلك الثالث «شيخ» لا يظهر في التاريخ إلا بصفته والد ابنه، ابن يوسف الشهير، الذي لم يجلس فقط على العرش الروحي الذي تركه جده، بل إنه أيضا خلَّف سمعة حسنة تضارع سمعة جده، وكان المصدر الدائم للخلاف في العائلة. فلماذا كان يُدعى ابن يوسف بينما كان اسم والده «شيخ»؟ لا يوجد من يستطيع أن يجد تفسيراً لذلك، على الرغم أنه يبدو من الممكن، إن لم يكن من المحتمل في الحقيقة، أن «شيخ» كان لقب والده وأن «يوسف» كان اسمه الحقيقي، أي «الشيخ يوسف».

وسواء كان الأمر عن عمد أو لا، فقد أصبح ابن يوسف ليس فقط منسوباً لجده، كما ظل حتى يومنا هذا، بل أيضاً مؤسساً لعشيرة تتمتع بتسمية عجيبة تُدعى

«عبدالقوي». هذا الاسم نفسه يوحي[1] بثورة الجند الجدد ضد الأسلاف القدماء في عشيرة آل بريك لصالح الابن الأصغر. وهذا الموقف قد أصبح أكثر إثارة بعد الاقتراح الذي قدمه لي بعض الذين كانوا يزودونني بالمعلومات مفاده أن ابن يوسف -الذي لم يحفظ التاريخ اسمه الشخصي الحقيقي- وأخاه، سالماً، كانا من والدتين مختلفتين. وسواء كانت أمه قد طلبت ذلك أو لا ، فيبدو أن العبيد في بيته -أو ربما واحداً منهم كان يحمل اسم العشيرة- قد زادوا من مستوى الثورة -بطريقة إيجابية أو سلبية- ضد الخليفة الشرعي لعباءة الشيوخ ونادوا بابن يوسف كوريث حقيقي لها. وبعد وفاته تم الاعتراف بتقواه وورعه من خلال إقامة ضريح له يضم رفاته، ومن ذلك اليوم حتى وقتنا هذا حافظ عبيد عبدالقوي على مكانة سيدهم ليظل منافساً للشيوخ الأولياء. ولا يبدوا أنه قد ترك أي ذرية، ولكن عباءته انحدرت -جيلاً بعد جيل- على ذرية العبد الذي جعله على ما هو عليه اليوم. إن رئيس العشيرة في يومنا هذا هو «علي بن سالم بن كرب».

وعوداً لخط الأسلاف الكبار نجد أن الخلافة الشرعية قد انتقلت من «شيخ» إلى ولده الأكبر «سالم» الذي أنجب «صالحاً» الذي أنجب «حسيناً» الذي أنجب عمر الذي ظل اسمه من ذلك الحين لقباً بديلاً للعشيرة، أي «آل بريك» أو «آل عمر» وقد كان هو الجد الأعلى لجميع الفروع الثلاثة الموجودة من العائلة من خلال أولاده الثلاثة: «عفيشة» و«صالح» و «عجيم». والرئيسان المشتركان الحاليان للعشيرة، سالم وعلي، هما ابنا الأول، أما مبارك وسعيد، اللذان كانا يعملان مرشدان لنا من «العبر» فهما ابنا الثاني والثالث على التوالي. وقد رأيت بعض الصغر من الجيل القادم أثناء إقامتي المؤقتة في شبوة.

(١) ربما على أي حال أن الاسم يعني العبدلله القوي. (المؤلف).

وأعتقد جازماً أن منازل هَجْر تحتل موقعاً ما، كان يوماً ما قصراً ملكياً. ومن المفترض أن يكون محيطه على الجانب الغربي مرتكزاً على ممر يؤدي إلى المدينة القديمة، والذي يجب عليَّ أن أعود لوضعه الآن بعد هذا الاستطراد الطويل عن شبوة الحديثة. هذا الممر من المفروض أن يكون له بوابة في الطرف الشرقي، على الرغم من عدم وجود أي دليل عليها في السور المتهدم في ذلك الطرف. ومن خلال البوابة كان الشارع يمتد، والبيوت على كلا جانبيه، والتي يحتمل أنها كانت تتفرع يميناً ويساراً عند الطرف الغربي لتتصل على التوالي بالشارع المتجه غرباً من البوابة الشرقية حتى أسفل الدرج العظيم الذي يمتد على طول مرتفع المعبد بالكامل. هذا الدرج كان يبدأ من البوابة الجنوبية الشرقية، التي تقف عند الجانب الجنوبي من الممر فوق أعلى منحدر بسيط يؤدي للصعود من الثنية الغربية الحادة للوادي، ويوجد بستان صغير من النخيل يزيّن أسفل ذلك المنحدر.

وقد ذكرت سابقاً البوابة الكبرى في وسط السور الشمالي الغربي، التي تؤدي إلى دخول الشارع الرئيس عند أسفل الدرج. ويوجد داخل هذه البوابة على كلا جانبي الشارع مبنيان اثنان يبدو أنهما كانا مهمين. والمبنى الموجود على الجانب الغربي أقل تماسكاً من الآخر بكثير، ولكن يبدو من تناثر شظايا المرمر (الرخام) وسط ركامه أنه كان بناءً ذا قدر عظيم، ربما كان معبداً أو مجلساً للمدينة. وقد كان المبنى الآخر أفضل مبنى مُصان في حقل الآثار بالكامل، ولكنه كان ذا بناء من كتل الحجر الجيري الخشن. وربما كان هذا المبنى للحراسة أو مكتباً للجمارك. وجدرانه في الجوانب الأربعة كلها سليمة، بيد أنني لم أستطع العثور على أي مدخل لهذا المبنى إلا فتحة في جدار يحتمل أن يكون اللصوص المعاصرون قد صنعوها. وكان السقف أسطوانياً قليلاً جداً، ولكنه مسطح من فوق وعليه طبقة منبسطة من التراب والحصى، ولا تزال المنشآت بها علامات القواطع التي توحي بشدة وجود نوع من الإنشاءات العليا التي

اختفت حاليا، ويحتمل أن تكون تلك المنشآت من الخشب أو أي مواد أخرى قابلة للعطب والفناء. ولذلك فمن المعقول -خاصة وأن عدم وجود أي باب يؤيد هذه الفكرة- القول بأن هذا المبنى ربما كان ضريحاً ضخماً، بيد أني لم أتوغل بداخله.

وفي الزاوية الشمالية من المدينة توجد بوابة أخرى يمتد منها شارع عريض في خط مستقيم حتى الشارع الرئيس في نقطة تقع إلى الجنوب قليلاً من ذينك المبنيين. وهكذا كان يوجد شارعان متوازيان يسيران من الشرق والغرب، وبينهما تتناثر أنقاض كثيرة تبرز منها بقايا جدران مبان هامة عديدة. وكان أحدها ذا بناء ضخم، لم يبق منه إلا ثلاثة أو أربعة مداميك، بينما يوجد مبنى آخر يعتلي رابية منخفضة وربما كان معبداً أو مبنى للإدارة. وبجانب هذه توجد منشآت متهدمة أخرى يمكن تتبعها بشكل غامض حتى المنطقة الواقعة إلى الشرق من الشارع الرئيس. وعلى الجانب الآخر حيث يتحدد خلال الوهد الطبقات الأرضية المالحة إلى أن يصل للمستوى الأسفل، فإن حالة التهدم في المدينة تعوق أي تحليل لها. وعلى مسافة بعيدة للغرب -على أي حال- وبجوار حائط بناء ضخم يقع على حافة قاع السيل، توجد بعض بقايا قواعد وجدران مثيرة للاهتمام. ولم يبق إلا ثلاثة مداميك من جدار النهر بينما -باستثناء الجزء الموجود في الزاوية الشمالية الغربية الذي ذكرناه من قبل بالفعل- الجدار الشمالي الغربي لا يمكن تتبعه إلا بركامه الطويل المغطى بالطمي.

والحقيقة نفسها تنطبق على الجدار الشرقي، الذي تمتد أجزاء قليلة منه دون غطاء.

هذه هي مدينة شبوة القديمة. وإلى أن تكشف معاول الحفر عن الكنوز المدونة تحت الأنقاض المغطاة بالطمي فسوف تظل تفاصيل تاريخها وتخطيطها مجرد مسألة حدس وتخمين. وقد أصبح الآن شيءٌ ما على الأقل معلوماً عن المواد التي استخدمها المعماريون القدماء في بنائها: وكذلك علمنا شيئاً ما عن شخصيتها العامة وترتيب مبانيها الرئيسة. وعلمنا شيئاً ما عن تصميم معبدها الرئيس. ولكن كان من المحبط لنا

أن لا نعثر ولو على مبنى واحد غير متهدم، ولا نقش واحد في مكانه. وكل ما استطعت أن أحصل عليه أو أنسخه كان فقط حوالي سبعة عشر نقشاً، وكان العديد منها مكسراً بصورة شديدة. ولكن كان ذلك بالتأكيد كل ما يمكن رؤيته من دون حفر، وبالرغم من ذلك فإن هذه النقوش قادرة على إثارة قدر عظيم من الاهتمام. وأصبح هناك الآن شيء واحد مؤكد عندي لا يمكن الطعن فيه بأي حال. هذا الشيء هو وصف بليني لشبوة -إذا كان بالإمكان إطلاق ما أسماه «سابوتا Sabota» على تلك الأطلال-. هذا الوصف غير دقيق بكل ما في الكلمة من معنى، حيث يقول مشيراً بوضوح إلى السبئيين الذين ذكرناهم من قبل: إن «جزءاً من هذه الأمة من الحضرمي - الحضارمة»، وفي بيان بالقبائل سابق على هذه الملاحظة كان قد ذكر الحضارمة، الذين كانوا من الواضح الحضارمة من القبيلة نفسها، وقال: إن «عاصمتهم - شبوة - فيها ستين معبداً داخل أسوارها. وفي أحد النصوص الأخرى الذي يتعلق بتجارة البخور يقول: «في وسط تلك المنطقة نفسها تقريباً يوجد الحضارمة، وهم مجتمع من السبئيين، وعاصمة مملكتهم هي سبأ، وقد كان سترابو الذي كتب مذكراته في أوائل القرن الأول الميلادي، أشد حرصاً: وحيطة. فبعد أن وضع قائمة بثلاث من أصل أربع أمم توجد في جنوب غرب الجزيرة العربية، وهم المعينيون والسبئيون والقتبانيون - ذكر الرابعة وقال: «الحضرميون Chatramotitae» هم الأمة الرابعة من هذه الأمم تجاه الشرق. ومدينتهم هي سبأ. وجميع هذه المدن يحكمها ملك واحد، وهي مزدهرة. وتُزينها معابد جميلة وقصور. وبيوتها، بطريقة ثني الأخشاب معاً، تشبه تلك الموجودة في مصر». في هذه القائمة ارتبطت سبأ بماريبا "Mariaba" (وهي مأرب الحديثة) وقرناء Carna وتمنع Tamna (ولم يتم التعرف على أي منهما[1]).

(١) لقد تم الكشف عن كثير من هذه الآثار في البعثات الآثارية في السنوات التي أعقبت زيارة فيلبي. فعن هذه المواقع التي ذكر انظر: بافقيه، تاريخ اليمن القديم، ص٢٨-٣٥، ٩٥. (المراجعون).

علاوة على ذلك، كتب المؤلف المجهول لكتاب البحر الأرتيري الأحمر The Periplus of the Erythraean Sea) في القرن الأول الميلادي يقول: «إلى الداخل من هذا المكان (أي كانا Cana) التي يحتمل أن تكون «بئر علي الحالية على ساحل المحيط الهندي» تقع العاصمة سبأ التي يعيش فيها الملك. وجميع البخور المنتج في الدولة يتم إحضاره بالإبل إلى هذا المكان لتخزينه..» ومن الغريب إلى حد ما أن بليني الذي بلا شك قد حصل على أعمال هذين الكاتبين الآخرين، قد تجاوز وصفهم الواعي لشبوة وارتكب خطأين جسيمين. فشبوة أبعد ما تكون عن وقوعها على جبل شاهق، بل إنها تمتد في صحراء منبسطة بين تلال جد منخفضة، وبالنسبة لعدد معابدها لا يمكن أن يكون هناك ستون منها على الإطلاق، ولا حتى ستة، داخل المساحة المحدودة المطوقة بأسوار المدينة. ولم يكن بها بالتأكيد إلا معبد بارز واحد ذو فخامة عظيمة، واثنان آخران عبارة عن أكوام للأنقاض داخل الأسوار ربما ثبت ذات يوم أنهما كانا معبدين. ولكن ثلاثة معابد تعد مسألة مختلفة جداً عن ستين، وحتى إذا استعرضنا الضاحية الموجودة على الجانب الشرقي للمدينة فليس من المحتمل على الإطلاق أن يوجد بها أكثر من اثنين أو ثلاثة كحد أقصى من أماكن العبادة. ومن المرجح أن يكون بليني أو سكرتيره قد ارتكب زلة قلم نادرة في كتابته ستين بدلاً من ستة، لأنه قبل ملاحظاته عن شبوة «سابوتا» بسطور قليلة كان قد ذكر مدينة تمنع 'Tamna'، التي تعود للقتبانيين 'Gebanitae' وقال: إن بها «خمسة وستين معبداً، وهو رقم ينم بالكامل عن حجمه. ومن الواضح أن هذه الأرقام قد ذكرت عن عمد، وعلينا أن نفترض إما أن يكون بليني ساذجًا جداً وسريع التصديق لحكايات الرحالة، أو أنه كان ميالاً للمبالغة قليلاً.

وهناك، على أي حال، تفسير بديل محتمل آخر. فربما كنا نحن المخطئين في تسمية «سوبوتا» بشبوة وأنا فعلاً أميل إلى الاعتقاد بأننا كذلك. فكلمة شبوة يبدو أنها مشتقة من الكلمة العربية «شب Shabb» التي تعني الشب أو الملح، وتشير بوضوح

إلى مناجم الملح التي تعد المعلم الاقتصادي الرئيس في تلك المنطقة المحلية. وشبوة بهذه الصيغة لم تكن معروفة لنا حتى اليوم في أي من المراجع القديمة كاسم للمدينة، التي توجد أمامنا بالفعل ثلاث صور مختلفة لاسمها : سابوتا "Sabota" وساباتا "Sabata" وساباثا "Sabbatha"، في حين نجد في سفر التكوين الجزء ١٠-٧ ذكر لسبأ Seba وشبأ "Sheba" بين سلالة كوش بن حام وعلاوة على (سابوتا) الخاصة بالحضارمة، يذكر بليني أيضاً مدينة «ساباثا» على البحر الأحمر كمدينة للسئيين. و سبأ هي الصيغة العربية «لشبا Sheba» بينما نجد أن الحزام الرملي العظيم الممتد من الحافة الداخلية لمرتفعات اليمن حتى بوابة حضرموت لا يزال يعرف حتى اليوم باسم «رملة السبعتين Ramla Sabatainâ» (أي السبأين Two Shebas»، وهو اسم قد يظهر في اللغة العربية الفصحى برسم «السبعتين» أو مجرد سبعة. ومن الصعوبة بمكان أن نعتقد أن هذه الرمال التي تغطي اليوم مجاري الأودية السبئية العتيمة - كما سوف أوضح في فصل لاحق - لاتخفي أي آثار من مملكة سبأ أو حمير. ولذلك أميل إلى الاعتقاد بأن بليني لم يكن يشير إلى مدينة شبوة بمفردها، ولكن كان يشير إلى كامل منطقة السبئيين التي ربما كانت حقاً تتفاخر بوجود ستين معبداً بها في أيام أوج ازدهارها القديم. وإذا كان الأمر كذلك فمن المحتمل أن يكون لدينا من الأسباب ما يبرر لنا توزيع معابد تمنع الخمسة والستين أيضاً على أمة «الحضرميين» كلها والتي كانت تشغل عدداً ضخماً من المدن. وبهذه الطريقة فقط يمكننا أن نحسن سمعة بليني كمؤرخ، وبشكل عام من المعقول أن نعطيه الفائدة من الشك عند إمكانية تفسير الحقائق القائمة لصالحه بدون أي إجهاد غير لازم.

إن كثرة الأسماء القديمة التي تشبه شبوة بصورة عجيبة يبدو أنها تمنع إمكانية ربط أي واحدة منها بالقرية الحديثة التي ظهر اسمها المعاصر -في حدود علمي- لأول مرة في أعمال وكتب الجغرافيين العرب بعد الإسلام. ويوجد -على أي حال- في النقوش التي نسختها أثناء هذه الرحلة فقرة ينطبق فيها اسم «شبوة» على المدينة

القديمة. وفي فقرة أخرى يبدو أنه يشير إلى الرسم «عليم Alim» (ربما كان إيلام Elam). وأول فقرة من هاتين الفقرتين يبدو أن تاريخها يعود إلى الجزء الأكبر من عهدنا نحن، وربما يكون بليني حقاً، بعد كل شيء، قد علم اسم شبوة على أنه سم معاصر للعاصمة الحميرية وأطلقه بصورة غامضة على المملكة الحميرية بكاملها في ذلك الوقت.

وعندما كنت أجلس بين بقايا المعابد في ذلك اليوم الأول وسط هذا الحشد العظيم من الناس الذي ظل يرافقني كظلي أثناء رحلة البحث والتفتيش، كنت الشمس الحارة قاسية علينا خاصة وأن السماء كانت خالية من الغيوم. وقد لاحظت -ببطء ولكن بالتأكيد- الحركة الوئيدة في البداية، فقد أدى الحر الشديد إلى تخلي كثير من الناس عن فضولهم العجيب، وبدأ الزحام يذوب شيئاً فشيئاً. وحتى أزيد من غمهم لم أُبْد أي قدر من الشغف المحموم المتوقع من عرّاف الكنوز. وقد كنت راضياً تماماً بالجلوس هناك في مكان بعيد أتأمل ذلك المشهد العجيب لمجدٍ قد رحل. وهكذا عندما نهضت من مكاني لمواصلة سيري على طول المعابد كانت الشمس قد رحمتني وخفضت المرافقين لي إلى أعداد بسيطة يمكن التعامل معها. وقد ظل الشيخ صالح، وهو يتصبب عرقاً تحت عباءته الثقيلة نسبياً، متشبثاً بي وعلى مقربة مني كما لو كان ذلك واجباً عليه. أما منافسه فقد آثر الهرب إلى الظل في بيته. كما ظل سعيد ملازماً لي انطلاقاً من شعور خاص بالأهمية والمسؤولية عني كمن يقدمني للناس والمجتمع. وفي الوقت نفسه كان حراسي الشخصيون النجديون - وكل رجل منهم مدجج بسلاح كامل ويحمل الجراب الذي يحوي أجهزتي المختلفة، ناهيك عن الحمل الذي كان يزيد باستمرار من بقايا الآثار - مضطرين إلى مرافقتي أينما اتجهت وحيثما حللت. وكانت بقية الجماعة تتكون من أطفال القرية الفقراء الذين لم يصبهم التعب. على عادة الأطفال، من التفتيش بين الأنقاض بجوار التل وإحضار ما يجدونه لي يحدوهم أمل لا يُهزم في الحصول على مكافآت خرافية.

واتجهنا نحو الغرب على طول الطريق المرتفع، ونحن نرى بقايا المباني أثناء مرورنا ، إلى أن توقفنا مرةً أخرى في الختام عند قلعة الماء «حصن الماء» على قمة ناتئة مرتفعة قرب نهاية السلسلة. وكان المبنى - من الطين وكسر الحجارة - حديثًا نسبياً، ولكنه يطل على المنطقة حوله من ثلاثة جوانب، كما يشرف أيضاً على البئرين الموجودتين بالوادي في أسفله مباشرة، وقد كنا نتجه إليه الآن، ونحن ننزل بصعوبة على المنحدر الذي تتناثر عليه أكوام الحجارة المفككة وأنقاض الآثار، إلى أن وصلنا إلى قاع وادي «معشار» حيث ينثني بحدة إلى الشمال حول جرف عال أخير في سلسلة المعبد. وقد لاحظت الآن أنه توجد سلسلة مشابهة تمتد شرقاً وغرباً على الضفة اليسرى للقناة وتسمى «كوير»، وكانت في الحقيقة استمراراً للسلسلة الأولى، وكان عبور الوادي يتم خلال ثغرة واسعة في وسطها. وقد أظهرت الجُرُف العالية على كلا الجانبين حواف مسننة من طبقات الحجر الجيري العارية، ومطوية بحدة شديدة، ومهشمة كما لو كان قد تم بفعل بعض الاضطرابات العنيفة تحت الأرض ويحتمل أن يكون ذلك ناتجًا عن ارتفاع قباب الملح عن قشرة الأرض، في شبوة خلال أحد العصور الجيولوجية البعيدة.

وعلى كل حال فإن الحقيقة المثيرة للاهتمام هي وجود سلسلة كاملة من مناجم الفحم، تمتد تقريباً من الغرب إلى الشرق، ولمسافة تبدأ من قرب بيحان ومأرب إلى ما وراء شبوة. وقد فحصت أربعة من أصل ستة منها بالتفصيل. ورأيت واحداً من الأخريات من على البعد. وكل واحد منها يقع في «جزيرة» معزولة من التلال المنخفضة، تشبه تلك الموجودة بشبوة، على مسافة قصيرة تجاه الشمال من جرف الهضبة، التي تتكون طبقاتها من الحجر الجيري من عصر الإيوسين وتغطي قاعدة من الحجر الرملي، ويبدو أن التلال لم تتأثر أبداً بأي حركة أرضية ربما تكون قد وقعت على طول واجهتها. وتوجد سلسلة موحية من الأقماع البركانية على مسافة ما إلى الجنوب من شبوة -كما سترى في الوقت المناسب- والاستنتاج المحتمل هو أن

الصحراء المنبسطة والممتدة من سفح الجرف نحو الشمال قد شهدت اضطرابات أرضية عنيفة في فترة ما قبل ارتفاع صفينة الإيوسين التي تشكل الجزء الرئيس من سلسلة الجبال المرتفعة، وبمثابة السور الجنوبي الواقي لشبه الجزيرة العربية. وفي جميع «جزر» الملح التي فحصتها هناك كان يوجد نفس التواء الطبقات الأرضية المميز الذي رأيته الآن لأول مرة في سلاسل جبال شبوة. والمظهر الذي لا يقل وضوحاً عن ذلك في هذه التشكيلات هو أن قباب الملح مكسوة بصخور مشبعة بمادة من القار (البيتومين) التي أدى ارتفاع قباب الملح إلى دفعها إلى السطح من الأعماق الحاملة للبترول في باطن الأرض. وكان هذا اكتشافاً ذا شأن عظيم، وقد تم حديثاً إرسال بعثة من شركة بترول شهيرة لتتقصى الإمكانيات الاقتصادية للمنطقة بكاملها، على الرغم من أنها لم تتمكن من اختراق منطقة شبوة - مرخة نتيجة لاعتراض السكان المحليين.

إن هاتين البئرين -اللتين تمثلان المصدر الوحيد للمياه في القرية- تقعان في مجرى «معشار» تحت مرتفع المعبد. والبئر الكبرى منهما، وتُسمى ديبان توجد في وسط القناة (المجرى) على بعد حوالي ١٠٠ ياردة من سفح سلسلة الجبل. وكانت هناك مجموعات كثيرة من الأغنام والإبل، تنتظر دورها بفارغ الصبر عند الآنية أو القنوات، وهي تقف أو ترقد حول البئر عندما وصلنا إليه. وقد كانت فوهة البئر محاطة بشريط عريض من الطين الأسود الرقيق ذي الرائحة النتنة، وكانت مرتفعة قيلاً عن سطح الوادي، الذي ينحدر إليه مزلقان مائل في جميع الاتجاهات. وكان قطر البئر خمسة عشر قدماً، وعمق البئر حوالي خمس قامات حتى الماء، وكان الماء وفيراً إلا أنه مالح قليلاً، ويستخدم فقط لسقيا الحيوانات. والجدار الداخلي للبئر مبطن بكتل صغيرة غير مشذبة من الحجارة. وكان عدد من الرجال والنساء منهمكين في استخراج الماء لقطعانهم في دلاء جلدية مستديرة مربوطة بحبال، ولم يكن هناك أي منشآت عليا أو بكرات لتساعدهم على سحب الماء، وكانت النساء كاشفات وجوههن ، ومن بينهن بعض الفتيات والشابات الجميلات، واللاتي جذبت مفاتنهن الكاملة ناصر،

أحد حراسي الشخصيين النجديين. وهكذا تلكأنا هناك بينما جلس هو يرمق بعينيه ملكة الجمال المحلي، التي كانت فتاة جدّ جميلة ذات قوام رشيق، والتي نالت إعجاب جميع من بصحبتنا بطريقة غير واضحة. وقد تطوع أحد الرجال وأخبرنا أنه عرض عليها بالفعل ما لا يقل عن ٤٠٠ ريال لطلب يدها، ولكنها رفضت !! وقد احمرّت وجنتا الفتاة خجلاً منا وانهالت رفيقاتها في الضحك بسرور وصوت مسموع. وقلت للجماعة، إننا لو لم نكن رحالة مسافرين، لربما جنحنا إلى زيادة المبلغ المعروض لطلب يدها، وهكذا واصلنا السير إلى البئر التالية. ولكن في الغد تطوع ناصر للعناية بملء القرب بالماء.

وتقع البئر الأخرى، وتسمى الحسوة مباشرة تحت الجرف أسفل الحصن. وماؤها عذب ومخصص للاستهلاك الآدمي، ولكنه شحيح نسبياً. وتتناثر حول فوهة البئر حولي عشرين أو أكثر من قِرَب الماء، بعضها مملوء بالفعل والبعض الآخر ينتظر دوره. وكان إمداد الماء لا يكاد يفي بالطلب، وفي قاع البئر بعمق أربع قامات وجدنا رجلاً وأربع نسوة منهمكين في غرف الماء في أوانٍ فخارية لمجرد ظهوره من طبقات الرمل الضحلة في الأسفل، بينما وقف آخرون على حافة البئر جاهزون لسحب الآنية إلى أعلى وتفريغها في القِرَب الجلدية. وكانت هذه البئر مبطنة بكتل من الحجارة الخشنة الكبيرة نسبياً عما هو موجود في البئر الأخرى. ويتم حمل القرب المليئة بالمياه إلى القرية على ظهور الحمير، وكان عدد من تلك الحمير يستمتع بتناول شربة من الماء من جرة رخامية كبيرة مكسورة، وهي بالتأكيد من بقايا العصر الحميري. وتقع هاتين البئرين في حوض الوادي على طول الجرف من بقعة النخيل الصغيرة في الزاوية بين المدينة القديمة وضاحية «هَجْر» تعود إلى عشيرة آل قطيان وهم أيضا مُلاك مناجم الملح. وقد عدنا لمقر إقامتنا على طول السور الغربي للمدينة القديمة، والذي لا يزال بالإمكان رؤية أجزاء كثيرة من بنائه الهائل.

وكان أفضل جزء باق من أسوار المدينة وجدناه في الركن الشمالي الغربي قريباً

من ضريح ابن يوسف، قد كان عبارة عن مبنى بسيط من الطين، مربع، مطلي باللون الأبيض، وبه نقاط في أعلاه في كل زاوية، وبعضها مزخرف بقرون التيس الجبلية، جرياً على العادات المحلية، ومن وسط السقف ترتفع قبة طويلة، تشبه إلى حد ما طفاية الشموع، مع قرن تيس في أعلاها. وترتفع حوالي اثنتي عشرة طبقة من البناء الأصلي إلى علو مقداره عشرة أقدام في هذه الزاوية، التي يحتمل أنها كانت المنطقة المحصنة. وقد اختفى الجزء العلوي، ولكنه استبدل ببناء طيني من طابقين، وفي فناء هذا البناء قدم لنا القهوة بعض رجال المعوان. وقد وُجهت لي أسئلة عن عمد تقريباً للاستفسار عن نوايا ابن سعود، ولكني استطعت أن أؤكد لهم أنه لم يخطر على بال صاحب الجلالة أن يشتهي ضم شبوة؛ ولا حتى بسبب ما بها من ملح، الذي يوجد منه ما يكفي ويفيض في نجد وأجزاء أخرى من مملكته. وأخبرتهم كيف أن ابن سعود قد أخضع جزءاً عظيماً من اليمن في حرب عام ١٩٣٤م، ولكنه كان أكثر سعادة عندما تخلى عن الأراضي التي استولى عليها عن طريق القوة. وأردفت قائلاً: إنه ليس لديه أي طموح في توسيع نطاق مسؤولياته الكبيرة أصلاً، ولكنه كان من الطبيعي أن يرغب في رؤية السلام والهدوء يسودان الأراضي الممتدة على طول حدوده مثلما يعم الهدوء والأمن فعلاً داخل أقاليمه. وإذا عدنا للوراء لسنوات قليلة كنا نجد نجران مسرحاً للفوضى والاضطراب بينما تعد اليوم نموذجاً مثالياً للسلام والأمن، مما حاز بالكامل على رضا ساكنيها الذين كانوا ذات يوم يقاسون عدم الاستقرار.

والآن كنا نشق طريقنا خلال حقل الآثار، ونزور المباني المختلفة التي ما زلت تحتفظ بجزء ما من صورتها الأصلية، وندور في دائرة مع الأسوار الشمالية والشرقية. وكانت الساعة تقترب من الرابعة بعد العصر عندما وصلنا إلى المخيم، سعداء بما فيه الكفاية بالراحة بعد يوم طويل شاق تحت الشمس. وفي ذلك الوقت رأينا سحابة قاتمة من الرمل كانت قد بدأت تتجمع من الجنوب. وفي غضون دقائق قليلة انفجر

الإعصار فوقنا مسبوقاً بعاصفة ريح باردة. واختفى العالم فجأة في ظلام دامس وطوتنا سحابة الرمل. وكانت الخيمة الكبرى لرفاقي قد اقتلعتها الريح وسقطت على الأرض. وكانت مظلتي المصنوعة من قماش القنب مربوطة بالسيارة في أحد الجوانب ومربوطة بالأوتاد على الجانب الآخر، وقد أخذت تصفق وترتعد وتحاول الانفكاك جاهدة، ولكن دون طائل. واكتسح الرمل فوق كل شيء وداخله. ولم يكن بوسعنا فعل أي شيء إلا أن نجلس مكتوفي الأيدي وننتظر انقشاع الكرب. وظلت العواصف تهب علينا عاصفة بعد عاصفة على فترات زمنية فاصلة مدة ساعتين، وفجأة مرت العاصفة وهدأ كل شيء مرة أخرى، ولكن ذلك كان مع غروب الشمس. ثم عادت العاصفة علينا من الشمال، وكانت الساعات الأولى من الليل كريهة بغيضة بسبب عواصف الرمل ودفعها العالي المتواصل ، بل إنها هي أرض «الشيطان» ذاتها. وعلى كل حال كان هذا هو اليوم الثالث فقط من مثل هذا البلاء، وما زال في الجعبة أيام أخرى لنا.

وطوال ما بعد الظهر كنت معرضاً لهجوم متواصل من متعهدي الآثار، الذين كان معظمهم فتيان صغار من القرية. وقد أحضر أحدهم لوحاً جميلاً جداً من الحجر الجيري -الذي كان دون شك جزءاً أصلياً من إفريز المعبد- به تصوير مجسم تجسيماً خفيفاً لشيخ في ملابس قديمة. وقد تركته لبرهة من الوقت بجواري ، حيث رآه رجل عجوز جد معتوه وذو أفكار غريبة، أو ربما كان قد أتى ليلقي نظرة على شخصي. وكان اكتشاف اللوح قد أدى إلى إصابته بنوبة من شدة الغضب على نحو غير لائق، وبدا يوبخني بطريقة مشوشة لسرقة الكنوز التي لا تقدر بثمن من المكان. وأمرته أن يغرب عن وجهي إن لم يستطع أن يكون مهذباً، وجاء سعيد، الذي تصادف ظهوره وسط هذا المشهد، ليقوده بعيداً إلى القرية، وهو يرغي ويزبد من هيجان الغضب. وقد قمت بلف هذا الحجر المثير للأذى في ورقة وأخفيته بعيداً في أحد صناديقي

لتفادي مزيد من المشاكل، لأنني شعرت، مقتنعاً أنه يجب أن يكون مسروقاً من أحد الأضرحة. وعاد الرجل العجوز مرة أخرى في اليوم التالي، ولكني لصقت ريالاً في راحة يده، وانصرف بهدوء بأقصى ما يستطيع خشية أن أسترده منه ثانية.

وكان المكان يبدو مليئاً بالثعابين. وقد تم إحضار اثنين منها ذلك المساء لي، وفي الليل جاء «الثعبان الأقرن» من تحت السيارة، وهو يتلوى تحت سرير فراشي. وقد كنت على وشك شل حركته وجعله غير قادر على الحركة بضربة من عصاتي الخيزران وأضعه في زجاج الأرواح عندما حاول أن يلوذ بالاختفاء تحت أحد صناديقي. وكان اثنان آخران من هذه الوحوش السامة وثلاثة ثعابين أخرى قد أضيفت إلى مجموعتي خلال الأيام التالية، نظراً لأن الأفاعي السامة كانت تنجذب إلى لمبتي المضيئة. ولم تكن الطيور هنا كثيرة، كما لم تكن مثيرة لأي اهتمام خاص، باستثناء طائر الأبلق النادر (واسمه العلمي هو Oenanthe Monacha)، والذي لم يكن نادراً في هذه المنطقة الجنوبية.

وجاء صباح هادئ جميل بعد الليلة العاصفة، وقضيت اليوم كله، مرة أخرى، بين الآثار لا يزعجني أي من أولئك الأتباع غير المرغوبين. وقبل أن أبدأ تجوالي - على كل حال، زارني في المخيم «علي بن عفيشة» الذي جاء على جناح السرعة من «عرما» بعد أن سمع نبأ وصولنا. وعلى الرغم أنه كان طاعناً في السن وعاجزاً وهزيلاً إلا أنه مليء بالود ومحبة الآخرين، ولكن كلامه كان متقطعاً قليلاً، ويتكون في معظمه من الإشارات. وهذا العيب يشاركه فيه معظم رفاقه، إذ يبدو أنهم يستخدمون أيديهم كثيراً لتوفير حركة التنفس، ولذلك أحياناً يكون من الصعب فهم حديثهم، ولكني سرعان ما اعتدت على ذلك، وأصبحت قادراً على تقليد إشاراتهم الغريبة بطريقة مضحكة مما آثار سخريتهم.

وفي الليلة التي وصلنا فيها كان أحد الرجال الذين تجمعوا حولي قد أشار إلى القرية وتفوه بكلمة واحدة قائلاً: "اللحم"!! بهذه الكلمة وبسحب يده عبر حنجرته استطعت أن أفهم أن الغنم سيتم جمعها في تلك القرية وذبحها لعشائنا وفعلاً جاءت الذبائح في الوقت المناسب. وقد سألت أثناء مجرى الحديث : «كم تبعد المسافة من هنا حتى حضرموت؟»، رفع شخص منهم يده وأربعة من أصابعه منتصبة إلى أعلى والأصبع الصغير منثن للداخل. وهذا يعني أربعة أيام ونصف -كما فهمت بالطبع-. ووضع شخص آخر كلتا يديه على بعض مع ضغط أصبع واحد وثني آخر، وهذا يعني ١٠ محسوماً منها ١ر٥ أي ٨ر٥ أيام للذهاب والعودة وسألت عندما كنا نناقش احتياجاتنا: «كم من الآبار توجد لديكم هنا؟»، ويبرز إصبعان لأعلى فوراً بدون كلمة واحدة، وهكذا إلى ما لا نهاية . ويبدو أن جنوب الجزيرة العربية كله مدمن لهذه الطريقة في الحديث، ولكني وجدت أنها ملحوظة بقدر أكبر في شبوة، وفي بعض الأحيان تكون متفاقمة كثيراً ومثيرة للغضب. وكان هناك زائر آخر هذا الصباح هو «سالم بن حمد» رئيس فخذ آل مسفر من قبيلة الكرب ومنطقته هي خبت الخالي بين شبوة ووادي دهر. وسوف انتهز مناسبة فيما بعد لأقول مزيداً من التفاصيل عن ذلك الرجل.

وفي اليوم الثاني بدأت بحثي على طول مرتفع هَجْر وبين هذه الآثار العادية نسبيّ تصورت مخيلتي منازل الأغنياء جاثمة على حافة جرف معشار وحدائقها تنحدر في مصاطب على مستوى وادي المحباض. وكان البناء المتناثر على السطح مشذباً بطريقة جيّدة عموماً، وكان هناك بعض بقايا من أساسات البيوت ما زالت في مواقعها، بالإضافة إلى آثار ما كان يحتمل أنه معبد صغير فوق رابية. ونزولاً إلى وادي معشار فقد التزمت خط الجرف الطيني حتى الثنية، حيث يوجد هناك قليل من أشجار النخيل والعُناب تمثل البقعة الخضراء الوحيدة في «الجزيرة». وفي هذه النقطة تشكّلت طبقة ضخمة من الطمي عبر العصور قُبالة الطبقات الأرضية المدمرة في سلسلة جبل القلعة، ويبدو أن سور المدينة القديمة كان يمتد من المضيق الذي يفصل بين

المثناه والهجر حتى برج القلعة. ولا يزال بالإمكان رؤية بعض آثار السور، والكثير من أساسات البيوت، ولا شيء خلاف ذلك. والطريق من مدن العوالق في «الأنصاب» ويشبم ينحدر إلى الوادي ويصعد إلى داخل منطقة المدينة متجاوزاً النخيل حتى يصل إلى المضيق.

وتقدمنا الآن في سيرنا باتجاه مجرى الوادي وتجاوزنا الآبار وعبرنا إلى الضفة اليسرى عند الثنية. وعندما تجاوزنا طرف سلسلة الكوير، التي ذكرناها من قبل، دخلنا وادي سهلة الواسع الضحل، وعبرناه على طول ظهر سد طويل منخفض من الحصى والتراب، الذي يسد مجراه بالكامل ويقوم بحجز مياه السيول الموسمية. والمنطقة فوقه مقسمة بحواجز منخفضة إلى أحواض تزرع فيها عشيرة آل عويرة الدخن والشعير. ولا يظهر على السد والحواجز الفرعية أي أثر من البناء القديم، على الرغم أنه ليس من غير المرجح أن تاريخه يعود إلى العصور القديمة. والحقول هنا تشتهر باسم «جربة الكوير»، التي في وسطها، أو الأخرى على أرض مرتفعة في الجانب البعيد من الوادي، أقام «صالح بن حزيق» مخيماً له من خيام سوداء في أيكة صغيرة من شجيرات السنط. وقد دعانا لتناول الغذاء معه، وقضينا أمسية جميلة رائعة في وسط قبيلته وعائلته. وكان صالح، بوجهه المليح ولحيته السوداء الخفيفة، يبدو ملائماً تماماً لمنصب شيخ قبيلة عظيم، وقد قام بأداء شرف الضيافة بسهولة جمة، وكان «محمد بن قطيان» موجوداً أيضاً في الخيمة عندما وصلنا، وكان مخلوقاً وضيع الهيئة مملوءاً بالمكر والبخل. وبالإضافة لهذين الشخصين كان هناك حوالي ستة من الأعضاء الآخرين في العائلة، الذين ملؤوا - مع جماعتي المكوّنة من ثمانية أفراد - خيمة الضيوف ذات الحجم المتوسط تماماً. ومع السجاد المفروش والوسائد وسروج الإبل كنا ننعم بقدر كاف من الراحة ونحن جلوس هناك نحتسي القهوة بأشكالها المختلفة، فأولاً القهوة الحقيقية المصنوعة من الحبوب اليابسة بالطريقة النجدية، ثم "القشر"، المصنوع من قشور حبوب القهوة الخارجية فقط، مثلما تشربه المجتمعات الفقيرة في اليمن وعسير،

وأخيراً الشراب الحضرمي المعتاد الذي يسمى "قفل" أو جفل ويصنع من الحبوب اليابسة والقشور الخارجية المسحوقة معاً والمحمصة بالطريقة المعتادة. ومن الصعب في حضرموت أن تشتري الحبوب التي نُزعت قشورها، ولكن «القفل» كان شراباً رائعاً على الرغم من أنه خفيف.

ومن مكاني في الخيمة كنت أستطيع أن أرى تحضيرات وجبة الغداء في منتصف النهار وهي تُنفذ تحت مظلة مطبخ صغيرة. وكانت أم صالح العجوز، تساعدها امرأة شابة جميلة الطلعة التي يحتمل أن تكون إحدى زوجتيه من القبيلة، وهي التي تقوم بجميع أعمال الطبخ بنفسها، ويبدو أنه كان لديها عدد ضخم من الأواني والقدور لتعتني به، ناهيك عن قيامها بتحضير فطائر الخبز المفرود -بسُمك بوصة واحدة وقطر ست بوصات- في رماد نار المطبخ وهذه الفطائر، بعد نضجها، يتم تكسيرها ويعاد عجنها بالسمن حتى تصبح كتلة ضخمة من الثريد، وتقدم للأكل في سلطانية خشبية كبيرة شبه مليئة بالمرق من مواعين اللحم. وجلسنا في دائرة حول السلطانيات في مجموعتين أو ثلاثة والتهمنا محتوياتها، ولكن خبرتي السابقة في نجران علمتني أن آكل ببطء في البداية إلى أن تنتهي الطبقة الأولى غير الشهية لكي أترك مكاناً لقدوم اللحم. هذا اللحم تم إحضاره إلينا على صينية كبيرة من أغصان الشجر المجدولة (مثل السلال) بعد تراجعنا للخلف من الثريد، ونحن ننهال بالشكر على مضيفنا لهذه الوجبة الممتازة كما لو كنا لا نتوقع المزيد. ثم قال مضيفنا: إنه من المفترض أن يكون الجوع قد عضنا بنابه، ثم دعانا، ونحن نحتج بأننا لا نستطيع تناول أي أكل إضافي، بابتسامة ساحرة لنتقدم مرة أخرى إلى صينيه اللحم التي وضعت أمامنا على الأرض. وفي العادة لا يجلسون في دائرة حول اللحم، ولكن نظراً لأن هذه كانت مناسبة خاصة وكنا جميعا ضيوفاً عليه فقد طلب منا أن نلتف حول الصينية، ونُقدر الطبخ الممتاز حق قدره. ولم يبق إلا أقل القليل من لحم الذبيحتين الاثنتين اللذيذ عندما امتلأت بطوننا، ثم أخذ صالحٌ الصينية على حجره واختار بعناية الأجزاء المناسبة من

اللحم ووزعها حسب ترتيب الأسبقية على أولئك الذين لم يشاركونا الوليمة. ولاحظت أنه انتقى أحد العظام التي تحمل كثيراً من اللحم عليها لولده الصغير القوي، حمد، الذي كان صائداً نشطاً للآثار خلال هذه الأيام. وظل المتلتون الآخرون لكرم صالح في أماكنهم وهم يلتهمون ما يأتي من نصيبهم من قطع اللحم. وبقي شيء قليل، بل قليل جداً، بعدما أخذ كل شخص نصيبه، وكنت سعيداً أن أرى هذا القليل الباقي يُرسل إلى المطبخ، حيث تجمع عدد من النساء الآن ليساعدن الأم والزوجة في التخلص من النفايات. ولم يكن ممكناً لكلاب المخيم أن تصبح سمينة من مثل ما تبقى لها.

وبعد الطعام اقترحت أن نأخذ قسطاً من النوم إن استطاعوا أن يوفروا لي خيمة لي بمفردي. وقد تم توصيلي إلى خيمة صغيرة قريبة ، خرج منها ساكنوها، وهم امرأة وأطفالها الاثنين الصغار وقليل من الماعز. وقد تركوني وشأني ونمت بعمق لما يزيد عن ساعة، واستيقظت على أصوات قريبة، ووجدت أن المرأة وأطفالها قد عادوا لبيتهم. ونهضت لأتوضأ وأؤدي صلاتي الظهر والعصر -جمعاً وقصراً حسبما هو مرخص به للمسافر-، وصليت بمفردي، وعدت للخيمة بعد ذلك. وكانت المرأة ترضع طفلها الأصغر، واستمرت في إرضاعه دونما أي حرج عندما جلست أتحدث إليها. ونظراً لأن سعداً يعلم عاداتي التي اعتدت عليها فقد أحضر لي كأساً من الشاي، وأرسلته في طلب كأس آخر وبعض السكر لكي نجعل هذه المناسبة حفلة شاي. وجاءت والدة المرأة من خيمة أخرى وانضمت إلينا، وتناوبن شرب الشاي من كأس واحدة بالدور، ولم تكن هاتان المرأتان، ولا أي من النساء الأخريات اللاتي رأيتهن في المخيم، تغطي وجهها، وكن يتحدثن بحرية دونما أي خجل. ولكن محمداً طلب مني الآن أن أقدم هدية بصورة ضرورية لابنه. وقد كنت في السابق، كما قد يُستشف مما ذكرته سابقاً، لا أرتاح إليه بشدة، ولذلك قلت له الآن إنني لست معتاداً

على أن أجبر على الصدقة. ونظر إليَّ بغيظ شديد، ونهضت لأنضم إلى صالح، ونزور معاً خيمة الرئيس الشرفي. وكانت ابنته، وهي زوجة صالح الشابة رائعة الجمال، هناك في استقبالنا وإرشادنا إلى مكان وجود الرجل المسن. لقد كان «حمد ابن ناصر بن قطيان» حقيقة رجلاً طاعناً جداً في السن ربما يقترب من التسعين، وكان أعمى من الناحية العملية وعاجزاً جداً بسبب الشيخوخة، ولا يقوى على التحرك من فراشه الذي يجلس فيه إذ لا حول له ولا قوة، وتسنده الوسائد من كل اتجاه. وعلى أي حال لم يكن الرجل قد نسي الجشع الذي كان قد ورّثه لابنه محمداً وقبل مني ريالاً عبارة عن هدية حيث انفرجت أساريره بكل علامات الرضا. وكان حديثه غير متناسق قليلاً، ولكنه اعترف بأنه يتذكر الأيام التي كان فيها فيصل بن سعود[1] حاكماً على الصحراء الجنوبية. وتحدثنا أيضاً عن الاتصالات القديمة نسبياً التي أجراها أهل شبوة مع سلطات عدن. وقد كانوا فخورين بابتعادهم عن كل ما يورطهم في ذلك الاتجاه، وحافظوا على شعار «فقراء بدون مهر» على الرغم من تملق ومداهنة أحد الأشخاص الذي كانوا يسمونه «الكرنين»، وربما كان هو الكولونيل ليك في عدن. وتمت الإشارة أيضاً إلى نجم أقل سطوعاً في سماء عدن يعرف لديهم باسم «الكابتن» وكان يزور بيحان أحياناً. وقد ذكروا «كرنين» آخر يقصد به بالتأكيد الكولونيل بوسكاون وكان محبوباً بقدر كبير في دوائر حضرموت، على الرغم من أنه كان - للأسف- شديد الخجل لدرجة تمنعه من التحدث أو الكتابة عن تجاربه في جنوب الجزيرة العربية.

وكنت قد استطعت أن أتعرف عليه من خلال تقرير يفيد أنه في أحد المناسبات ذهب في رحلة صيد للبقر الوحشي مع جماعة من قبيلة الصيعر إلى الحافة الجنوبية

(١) المقصود هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله الذي سبقت الإشارة إلى أن نفوذ الدولة السعودية الثانية امتد إلى تلك المناطق في عهده. (المراجعون).

للربع الخالي. وقالوا لي أيضاً: إنه حاول الوصـول إلى شبوة، ولكن صدر إليه تحذير بالابتعـاد عنها مع تهديد بالمحاصـرة المسلحة. وأخيـراً تحدثوا بفخر يمكن غـفرانه عن تجربتهم مع طائرة بريطانية كانت، وهي تمر فوق منطقتهم في طريقها إلى حضرموت، قد أسـقطت رسالة ولفة تحتـوي على شريطين طويلين من القمـاش الأبيض. وكانت الرسالة تقول لهم: إن من بهذه الطائرة سوف يعودون في يوم معين لزيارة شبوة. وإذا كانت هذه الزيارة مـقبولـة فقد كـان المطلوب من سكان القرية أن ينشـروا الشريطين الأبيضين في شكل صليب على أرض مـهبط ملائم. وكان القـماش هدية، حيث تم في الحال تقـطيعه إلى أجـزاء مناسبـة لتكون ملابس جـديدة لمن تلقاها. ومـا حدث بالفعل لـم يزد على أن قام سكان شبـوة بتسليح الرجـال والوقوف على قـمم التلال للترحيب بالطائرة ترحيباً حاراً إن هي تجرأت على الهبوط. ولسبب ما لم تعد الطائرة أبداً. وتحدثوا أيضـاً عن محـاولة أخرى لزيارة شـبوة، ولكن قصـتهم كـانت شديدة الغموض واستعصى عليّ فهمها. وعلى كل حال أعتقد أنني قد توصلت فيما بعد إلى الحل الصحيح للغز، والذي سوف أشير إليه في الوقت المناسب.

وعندما استأذنت من لشـيخ الجليل لم أنس أن أضع ريالاً في يد ابنته الجميلة. ثم سرت إلى المطبخ لمكـافأة الطباخين، بالطريقـة نفسهـا، على ما قدمـوه لنا بصورة طيبة. وكان صـالح ومحمد وقلة من الآخرين، منهم الصـبي حمد - الذي كان من الواضح أنه التفاحة في عين أبيه - قد رافقوني في المشي للنزهة على درب واسع كان ذات يوم مسـرحاً للري الكثـير أيام مـجد شبـوة. ويفصل شـريط ضيق من الأرض المرتفعة، القناة ذات السدود في وادي سهلة عن قناة الخانق المليـئة بالشجيرات والأكثر وعورة نسبـياً، ويرتفع الشريط ويسيـر على طول المنحدر، الذي ينتهي في مـرتفعات خشم غالب التي يصل ارتفاعها إلى حوالي ١٠٠٠ قـدم فوق مستوى السهل. وبينما ينبسط السـهل إلى ما وراء الأراضي الرأسية تجـاه الصحراء فإن الواديين يتـوزعان في قنوات يصعب تمييزها.

هذا الشريط من الأرض يُعرف باسم العقم أو جفر العقم، ومن الواضح أنه كان في العصور القديمة يشكل الجزء الأكثر أهمية من منطقة الري الواسعة الممتدة بين الجرف الشرقي والغربي. وصادفنا في البداية مجموعة من أربع منشآت كانت تشكل بوضوح رأس القناة، ويوجد عندها القناة الرئيسة وثلاثة فروع تتجه في اتجاهات مختلفة عنها. وكانت جوانب هذه القنوات الفرعية فيها فتحات لتمسك بوابات التحكم بالمياه التي كانت تُرفع أو تُنزل -بطريقة يدوية على ما يبدو بوضوح- حسب الحاجة للمياه في إحدى القنوات. ولم تمتد آثار تلك القنوات لمسافة بعيدة، ولكن القناة المركزية يمكن تتبعها لمسافة طويلة حيث تمتد تقريباً من الشمال للغرب. وعلى طول مجراها توجد بقايا من قطع بناء فيها فتحات لبوابات التحكم بالمياه مثل القنوات الأخرى، وأتينا فترة من الزمن على آثار كثيرة من البيوت الطينية ومبان أخرى متفرقة. وكنا هنا في سهل واسع يمتد من قناة معشار على أحد الجوانب إلى منخفض «الخنق» مرتفع لسان «غالب». على الرغم من أن هذه الأرض الآن مهجورة وغير مستعملة، وتنتشر بها أجزاء من قنوات الري المبنية هنا وهناك، والعديد من تلال الطمي التي يتراوح ارتفاعها من عشرين إلى خمسة وعشرين قدماً، والتي يبدو أنها تحدد أضلاع مستطيل كبير. وكان من الصعب تحديد رأي فيما إذا كانت هذه التلال الطينية تمثل مباني طينية متهدمة أو بقايا سور دائري. ويوجد في بعضها أثر من بناء حجري يوحي بأنها كانت بيوتًا، ويحتمل أن السور المستطيل. كان يطوق مخيماً أو حصناً لحماية الزراعة. وعلى أي حال لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك في أن هذه البقعة كانت في العصور الماضية مزروعة على نطاق واسع، وكانت تُروى بطريقة تامة ومتقنة. ولا يزال جزء صغير منها يُزرع الآن في مواسم السيول الكبيرة، ولكن لاتوجد أي محاولة لتخزين أو توزيع المياه لاستخدامها في الري الدائم، على الرغم من أنهم ما زالوا يتأملون بحسد في الزراعة الواسعة التي كان يشتغل بها القدماء،

الذين يسمون أعمالهم بالكفرية -أي غير مؤمنين أو بني غسان-. وكان اثنان من حجر الرحى المكسورين هما كل ما رأيته من آثار الأواني المنزلية في تلك الأيام الغابرة.

وعدنا إلى مخيمنا في شبوة بعد حلول الظلام بكثير، حيث إننا كنا قد ابتعدنا عن قرية «المعوان» تفادياً لها خشية أن يخطئوا ويحسبونا أعداء، وسرنا بجوار الآبار. وفي منتصف الطريق أثناء العودة اقترحت أن ينصرف صالح ومحمد إلى خيامهم، نظراً لأن حرسي الشخصي سوف يرافقني في العودة. وقد انصرف صالح فعلاً مع حمد الصغير وهو يسير خلفه، ولكن محمداً مكث معي، وشعرت أن شيئاً ما يدور في رأسه. وقال بعد دقائق قليلة : «أنا أعرف صخرة... صخرة كبيرة مثل هذا» وسحب عصاه على طول الأرض وصنع مربعاً تبلغ مساحته حوالي اثنتي عشرة ياردة أو أكثر، وأردف : «وعليها كتابة قديمة في جميع وجوهها». وسألته: «أين هي؟. إذا لم تكن بعيدة أود رؤيتها». فأجاب : «إنها ليست بعيدة، ولكن أعتقد أنني أعرفها، فقد عثرت عليها ذات يوم عندما كانت إبلي ترعى قريباً منها». وقال: «ولكن ماذا سوف تعطيني إذا أخذتك إليها لكي تراها؟» فقلت له: «لا شيء ولا يهمني إن كنت أراها أم لا؛ ولن أحدد ثمناً لها. إنني لا أشتري مثل هذه الأشياء. وأنت تعلم أنني كريم مع أولئك الذين يخدمونني، ولكن لا أحب هؤلاء الذين يساومون». وواصل حديثه بلا خجل قائلاً: «إنك إن لم تعطني حقوقي، فلن أريك الصخرة المكتوبة ما لم تدفع لي». فأجبت: «احتفظ بصخرتك لنفسك، وبالنسبة لحقوقك لا أعلم شيئاً عنها، وأنا لا أعطي أي رجل إلا على سبيل السخاء». وبهذه العبارة ذهب بعيداً عني، غاضباً محبطاً، ليلحق بصالح في طريقه إلى مخيمهم. وفي اليوم التالي زارني مرة أخرى ليطالب بحقوقه. فقلت له: «أخبرتني أمس عن صخرة مكتوبة. ولن تنال شيئاً مني إلا إذا رأيتها، وبعد ذلك فأنا الذي سوف أحدد ما أعطيك إياه».

وكان اليوم خالياً من العواصف الرملية، ولكنا لم نكد نعود إلى المخيم حوالي الساعة السابعة مساءً إلا وانفجرت علينا سحابة تراب فجأة بعنف شديد، واستمر ذلك لنصف ساعة. وبعد ذلك تفرق إلى سلسلة من العواصف الرملية مصحوبة بقطرات قليلة من المطر، الذي أدى إلى خمود الغبار، على الرغم من أن الريح العاصفة هبّت علينا في أوقات متقطعة أثناء الليل. وفي الصباح التالي استأنفت رحلتي، بدءاً بطريق الطرف الشمالي لسلسلة جبل هجر ونزولاً منها إلى ملح المغيرة عند سفح سلسلة جبل غارة الملح. وكان الجزء العلوي من السلسلة يتكوّن من مزيج الحصى والطمي، وتحته يقع الملح الحجري في مستوى الأرض وتحتها. والمنجم نفسه عبارة عن تجويف يمتد لعمق ثلاثين قدماً، ومساحة مسطحة تبلغ حوالي خمسين قدماً في كل اتجاه. والطبقات الصخرية الممتدة فوق الملح وتحت الغطاء الطيني ذات لون أسود تشبه البترول أو القار (البيتومين)، ومتقشرة نسبياً وناعمة. وقد هبطت داخل المنجم بمنحدر حاد من فتحته. وتظهر خطوط على جدار الملح من أثر الضرب بالآلات مستدقة الرأس.

والعمل في الملح يعد امتيازاً مقصوراً على عُتقاء المشايخ وقطيان الذين يتلقون نصف ريال عن كل حمولة إبل من الملح مأخوذة من المنجم. وتحفر ثقوب في الملح لتوضع عليها أصابع الديناميت، التي يؤدي تفجيرها إلى تفكيك كتل ضخمة من الصخور. وبعد ذلك يقوم العمال (العتقاء) باستخراج الملح بالفؤوس ويجمعونه في أكوام جاهزة للتعبئة في القرب الجلدية لنقله إلى حضرموت ونجران أيضاً. هذا الملح جيّد النوعية، يشبه البلّور الأبيض. والمنجم الثاني، «ملح الرشيد» هو أكبر الاثنين ويقع تحت السهل بحوالي ١٠٠ أو ١٥٠ قدماً، وعرضه أربعون قدماً، وعمقه خمسون قدماً، ويتكوّن من حفرتين متصلتين بفتحة صغيرة تربط قاع واحدة بأخرى. والسطح يتكون من الطمي وكسر الحجارة بعمق حوالي عشرة أقدام فوق الملح. وجدران الملح في تلتا الحفرتين عليها خطوط من أثر المعاول مثلما هو الحال في منجم (المغيرة). هذه المعول عبارة عن عصيٍّ غليظة يبلغ طول الواحدة حوالي ثلاثة أقدام ومركّب

عليها مطارق حديدية ذات أطراف مستدقة لتكسير الملح إلى أحجام ملائمة للتداول، ويدر الملح ربحاً وفيراً يصل إلى حوالي أربعة ريالات لكل حمل بعير في أسواق حضرموت. وكانت فوهة هذه الحفرة محاطة بعشرين أو أكثر من القرب الجلدية المملوءة بالفعل وجاهزة للنقل، وكانت هناك قافلة صغيرة قد بدأت تتجمع لهذا الغرض.

وبعد أن تركنا مناجم الملح اتجهنا ناحية المدينة القديمة وسرنا مع سورها الشرقي إلى أن وصلنا قرية هَجْر حيث قمت -بعد فحص وتصوير الأجزاء الباقية من البناء القديم- بزيارة للشيخ علي بن عفيشة في بيته على قمة سلسلة الجبل. وكانت مجموعة متواصلة من درجات سلم تؤدي إلى غرفة الاستقبال، التي كانت مفروشة بصورة هزيلة جداً من حصير النخيل فقط. ولم يقدم لنا القهوة ولا حتى الماء، الشيء الذي كنا سنرحب به بعد جولاتنا، فقد كان الجو حاراً جداً في الشمس، وانصب الحوار بين مضيفنا وأتباعه الأوفياء بصورة رئيسة على التوبيخ العنيف ضد سكان المعوان الذين، كما قال علي: «كانوا سابقاً خدماً في بيت والدنا ولكنهم الآن يبدو أنهم أصبحوا منافسين لنا». إن ضمان السيطرة على ضريح ابن يوسف هو الطموح الوحيد لشيوخ «هَجْر». فبالنسبة لهم لا يهم أي شيء آخر، وكان جهلهم بالعالم وأحواله مثيراً للدهشة والاستغراب مثل افتقارهم إلى كرم الضيافة.

وكنت الآن قد بدأت أشعر أنني فحصت شبوة تماماً قدر الإمكان بدون فأس للحفر، ولكن بعد زيارتي للمسجد ونسخ مابه من نقوش حميرية، قمت بزيارة وداع للمعبد الكبير. ثم عدت للمخيّم بعد أن حفرت قليلا بين أكوام الأنقاض التي تقع فوق منجم الملح الثالث الذي يُدعى «ملح ربيعة» ، و الذي توقف العمل فيه. وقد وصلت المخيم بعد الساعة الواحدة ظهراً بقليل، واستقبلت الزوار بالتتابع المعتاد أثناء العصر. كما قمت بالتنزه مشياً على الأقدام في منطقة قناة المحباض التي تحتفظ ببقايا ضئيلة من نظام الري القديم، على الرغم من أنها كانت أقل وضوحاً مما هي في منطقة العقم. وعلى كل حال كان من الواضح أن هذا الجانب من "الجزيرة" كان مزروعاً في

العصور القديمة، في حين أنه في الوقت الحالي لا توجد إلا زراعة بسيطة فقط في المناطق المعرضة للسيول تحت الجرف قرب حصن صغير يسمى «حصن باشعنون» وإلى الجنوب بعيداً يسمى «حصن المشايعة» في النقطة التي يبدأ عندها مجرى قناة «العطف» التي تنثني نحو الشمال من وادي عرما بين الجُرُف العالية من الحجر الجيري.

وانتهى اليوم بالعاصفة الرملية الحتمية التي -بعد أن تجمعت وتشكلت طويلاً في الشمال من ساعة غروب الشمس تقريباً- انهالت علينا عندما كنا نجلس لتناول العشاء في الثامنة مساء. وبعد نصف ساعة نزلت زخة من المطر وتحسن بعدها الأمر، على الرغم من مواصلة هبات من الريح في الهبوب علينا حتى الساعة العاشرة ليلاً، توقفت العاصفة فجأة مثلما بدأت. لقد استمرت طويلاً بما يكفي، على أي حال، لإفساد الألحان والغناء في الهواء الطلق بالمخيم والتي كان يعزفها مغنون زنوج محليون، الذين جاؤوا بالطبول والآلات الوترية بعد أن انتهينا من العشاء، وظلوا يعزفون إيقاعاً ضعيفاً نسبياً إلى أن أجبرتهم الهبات القاسية للريح على الدخول في الخيام. إن جزءاً مقدراً من سكان شبوة يتكون من هؤلاء «العبيد» ومعظمهم من الأبناء الأحرار المنحدرين من العتقاء الذين كانوا عبيداً عند زعماء قبيلة «آل بريك» أيام مجدهم. وما زالوا هم العمال في مناجم الملح، ولكنهم يحصلون على مكافآت نظير عملهم الشاق في حفر الملح بالمعاول وتعبئته في الأكياس للنقل. وكان بعضهم رجالاً ذوي بنية بدنية رائعة جداً، ويميلون إلى المشاكسة وحب الخصام مثل باقي السكان. وقد جاء أحدهم إلى مخيمنا يطلب أجراً على التمتع بميزة زيارتنا مناجم الملح، وبدا عليه الإحساس بالظلم عندما طعنت في دعواه. ولكني في النهاية أعطيته ريالاً واحداً مع معلومات مجانية حيث قلت له: «إن مناجم الملح في شبوة لا يمكن أن تعد بسهولة من ضمن العجائب السبع في العالم». وقد بدت عليه الدهشة تماماً، ولكن كان قد نال الريال، وهذا مايريده. وعلاوة على نصف الريال المستحق دفعه لعمال

المناجم العبيد فإن عائلة «آل قطيان» تتقاضى حقوق ملكية قدرها ريال ونصف أو ريالان عن كل حمل بعير يغادر المناجم.

ولم أزر ضريح محمد بن بريك إلا بعد عودتي من حضرموت لأقيم مرة أخرى إقامة مؤقتة في شبوة، ولكن ربما يكون من الملائم أن أُضَمِّن وصفاً له في هذا الفصل. والضريح من الخارج عبارة عن مبنى طيني ذي أبعاد صغيرة وبه أبراج في كل زاوية، وقبة بيضاء ذات طفاية شموع في وسط السقف . هذه القبة وواحد (أو اثنين) من الأبراج مزينة بقرون التيس الجبلي (الوعل). وعلى الجانب الغربي من الضريح الفعلي توجد ساحة صغيرة محاطة بأسوار منخفضة مع مدخل منخفض جداً على الجانب الشمالي. ومما لاشك فيه أنه مصمم على حسب مبدأ الأبواب الدوارة -التي تسمح بدخول شخص واحد أو خروجه- لكي يمنع أي ازدحام للزوار، الذي يتوقع من كل واحد منهم أن يدفع مبلغاً قليلاً من المال قبل أن يرى المشهد. وبمجرد أن تدخل الساحة يواجهك باب الضريح نفسه، حيث إنه موضوع قرب الطرف الشمالي للسور الغربي. وداخل الضريح كان الظلام حالكاً، نظراً لعدم وجود النوافذ والسرج، المكوّنة من نصف قشور بيض النعام المتدلي الذي يحتوي على فتيل عائم في الزيت، لم تكن مضاءة. وفور أن اعتدت على الظلام فقد بدأت أحدد محتويات هذه الغرفة المرفدة والتي لم يوجد بها، لدهشتي، أي أثر من الآثار القديمة. ولم يكن فيها إلا ممر ضيق يسير حول ثلاثة جوانب وممران آخران متقاطعان يسمحان بالطواف الكامل حول الشيخ الولي وولده، نظراً لأن المكان برمته كان مشغولاً بأربعة قبور، ومحاورها الطويلة تمتد شمالاً وجنوباً. وأول قبرين، على يمين الداخل، كانا لامرأتين، هما بالتحديد: فاطمة، التي لم يستطع علي بن عفيشة وآخرون من الحاضرين أن يذكروا أي تفاصيل عنها مهما كانت، على الرغم من أنه يبدو، من المحتمل أنها كانت إحدى زوجات الشيخ وشبلة وهي امرأة من قبيلة بالحارث -ويحتمل أن تكون من قرية بيحان- ويقال: إنها كانت زوجة الشيخ. ولا يُغطي هذين القبرين أيُّ نوع من المظلات. وهما ممسوحان

مسحاً تاماً بالطين، وأحدبان قليلاً مثل النعوش التي ما زالت مستخدمة في الجزيرة العربية لحمل النسوة إلى الدفن، هذا التحدب المكسو بقماش متدل ومتجعد مصمم ليخفي معالم جثة الأنثى المتوفاة، والقبران أيضاً قريبان من بعضهما بدون ممر بينهما أو بينهما وبين الجدار.

وبين شبلة وعمر -ربما يكون ابن الشيخ الولي فيها- يوجد ممر ضيق، في حين تفصل مسافة مشابهة الولد عن أبيه. وكلاهما يرقدان في قبر طيني مماثل لقبري المرأتين، ولكن فوق قبري الذكرين الاثنين تقف مظلة مستطيلة من صندوق خشبي يعلوها سقف، يرتفع صرفه حوالي سبعة أو ثمانية أقدام فوق الأرض. إن السطح الخارجي لمظلة محمد بن بريك ممسوح تماماً وبصورة كثيفة بنوع ما من الشحم اللزج، ولقد لاحظت أن الناس المحليين الذين دخلوا معنا قد قاموا بالدوران دورة حول القبر -ولكن ليس حول قبر عمر- وهم يتحسسون بأصابعهم ويقبلون كل بوصة تقريباً من البناء على طول اتصال جدرانه بالسقف وعند الطرف الشمالي للمظلة، وداخلها بالقرب من الأرض عند رأس القبر، يوجد شيء ما، يشبه الإناء مليء بالرمل الناعم، الذي يأخذ منه الزوار ويقوم بنثره فوق رؤوسهم وأكتافهم. وكان الجو داخل الضريح حارّ ومقززاً، وكنت سعيداً بالخروج مرة أخرى في الهواء الطلق. وقد انتهينا من زيارتنا الرسمية، ورأيت ما يكفي في أحد أضرحة شبوة مما جعلني قادراً على تصور محتريات الأضرحة الأخرى دون تجشم عناء زيارتها.

وهكذا انتهينا من شبوة - ومن دون بنات سبأ فهي الأكثر بؤساً، مثل بَغيٍّ في شيخوختها، فقيرة وشريرة وحقيرة، قد أتلف مرور السنين سحر شبابها، وذهب جمالها الغض تماماً كأن لم يكن. ولا نستطيع أن نكتشف في ندوب وتجاعيد اليوم إلا بالكد ما يدل على فتنتها وروعتها، التي طارت الإشاعات بها إلى روما البعيدة مع التوابل والعطور العربية. ومع ذلك فقد ظلّ اسمها باقياً عبر العصور، ليمثل إغراء دائمٌ لمحبي الاستطلاع. ومن الغريب حقاً أن تبقى خصوصيتها سليمة لم تُمس

لصروح طويلة من الزمن. ولقد ذكرت سابقاً بعض المحاولات غير الناجحة في التسلل إليها، ولحد علمي في هذا الوقت فقد كنت أول أجنبي يرى مفلقتها الذابلة.

وفي الحقيقة لم تكن كذلك !! فقبيل مغادرة نجران كنت قد تلقيت مجموعة ضخمة من جريدة «التايمز» التي قضيت وقت فراغي الضئيل في قراءتها أثناء سفري نحو الجنوب. وفي الشضيف وبالمصادفة العجيبة، وقبل أن أنطلق بقليل عبر الصحراء في طلب شبوة، قرأت أحدث عدد من تلك الصحف، وهي التايمز بتاريخ يوم ٢٦ مايو، التي تصادف أنها تحتوي على مراجعة لكتاب «فريا ستارك» الذي نشر حديثاً بعنوان: «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية» وقرأت فيما يلي: «كان هدف ستارك الوصول إلى مدينة شبوة القديمة، التي لم تر عين كافر قط معابدها الستين حتى الآن». وهكذا خلال الأيام الأولى في شبوة كنت أنقب في آثارها متصوراً أنني كنت أول أوروبي -مع أنني لست كافراً- يراها. وعند عودتي من حضرموت كنت قد حصلت على معلومات بصورة أفضل.

ولم أقرأ كتاب «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية» إلا بعد ذلك بشهور كثيرة، عندما كنت أنا بنفسي أرقد مريضاً بالحمى في مكة بعد الحج، وبدا لعقلي الملتهب بحرارة الحمى أن يد امرأة قد قادتني بنعومة ورقة عبر المشاهد المألوفة في «وادي الموت» مثلما يتحدث صوت امرأة بطريقة فاتنة عن أناس عرفتهم هناك وأماكن رأيتها. ومع هذا بدا لي الأمر غريباً لأن المرأة التي سمعت كثيراً من القيل والقال المحلي لم تسمع بحكاية «هانز هلفريتز» وزيارته الناجحة لشبوة خلال الأيام التي هي نفسها ترقد مريضة بمرض خطير في شبام. وربما حجب مضيفوها الكرام الأنباء عنها نظراً لمصيبتها المؤسفة. ولكنها كانت تعلم بالطبع أن هلفريتز كان في حضرموت في ذلك الوقت، يخطط لزيارة الهدف نفسه الذي كانت تقصده. لقد كانت في الحقيقة، كما اعترفت هي صراحة، يتم إخبارها أولاً بأول بتحركاته يومياً. وكان لديها أصدقاء في الوادي وعدوها بأن يحبطوا خططه،

حتى تكون هي أول من يصل شبوة. ثم تدعنا لنرى كيف كانت متحاملة بقوة ضد الرجل، الذي رفضت حتى ذكر اسمه فيما يرتبط بهذا المشروع، على الرغم من أنه قد ذُكر بالاسم في أعمال أخرى. بل إنها تقر قائلة: «إن شعوري لم يزد على أن أبتسم من هذه الفكرة»، عندما أخبرها مضيفوها صراحة "بأملهم الودود في أن شيئاً ما مثل حادث أو موت مفاجئ قد يقع له في طريقه" إلى شبوة !.

«ثم جاءت الأخبار بأن . . . الشاب الألماني قد انطلق. فقد عثر على أحد البدو في سوق سيئون، واتخذ الترتيبات اللازمة للذهاب إلى هناك مباشرة. . . وشعرت بالخزي». وتعترف قائلة : «يجب عليَّ أن أشعر بالقلق إذا وصل الآخرون إلى مدينتي قبلي، لأن مسألة أن تكون الأول ليست في الواقع عاطفة صادقة». وتواصل القول: «وصل الألماني إلى القطن واستمر في الرحلة. وجاءني وعد من السلطان. . . بأن البدوي الذي معه - على الرغم من أنهما قد وصلا القرية الحديثة، لن يكون قادراً على أخذه إلى موقع المدينة القديمة، وهي على بعد مسيرة يوم على الدواب، وفهمت أن ذلك مجرد لطف من جانب السلطان، ولكنه قد تحقق فعلاً». فبعد شهور تلقت أنباء من شبام مفادها أن «الألماني. . عاد من شبوة. . . وقال: إن هناك منجمًا يحوي بترولاً وذهبًا يمكن اكتشافه. . وإنه لم يكن مسروراً هناك، ولم يمكث إلا نصف يوم، لأن القبائل هجمت عليه. . ورحل إلى ضواحي شبوة ولكن لم يدعوه يدخلها كلها.» واختتمت الفصل قائلة: «ولقد كان السلطان محقاً في ظنه، وما زالت المدينة القديمة ومعابدها الستين تنتظر الرحالة».

هذه الأشياء كانت تقع خلال الشهور الأولى من عام ١٩٣٥م. وكان كتاب فريا ستارك قد نشر في إنجلترا عام ١٩٣٦م، بيد أن هانز هلفريتز - بسبقه إياها إلى شبوة - كان أيضاً الأول في الميدان بوصفه لمغامراته في كتاب نشر بألمانيا عام ١٩٣٥م تحت عنوان «غموض حول شبوة - Geheimnis un Schobua». ويبدو من الغريب أن كلا من

المؤلفة والصحفي الذي راجع كتابها «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية» في جريدة التايمز لم يسمعا بالكتاب المنافس السابق، الذي كان سيُعدل من وجهات نظرهما وآرائهما بصورة كبيرة. فقد وصل هو وجماعته في جوف الليل إليهم طبقاً للخطة، وقبعو في الكوخ الذي كان بمثابة فندق لراكبي القوافل القادمين. وعند الفجر جاء الزوار ليفحصوا القادمين الجدد. ولما اكتشفوا «أفرنجياً» بينهم أدى ذلك إلى حدوث هياج وضجيج حتمي. وبينما كان مواطنو شبوة الغاضبون يتناقشون -وهم يأكلون طعام إفطاره ويشربون قهوته- ليس في مسألة قتله أو لا، وإنما في كيفية قتله، فقد هرب هلفريتز باثنين من كاميرات التصوير الخاصة به «لتصوير» الآثار. وأثناء هذه العملية ألقى جمهور الغوغاء القبض عليه، وهرب مع مرافقه تحت وابل من النار الوحشية، وكان يخذ لقطات سريعة خلال خروجه من موقع الخطر. ومن المحتمل أنه لم يمكث أكثر من ساعة من نهار في تلك المدينة. ومع ذلك فقد استفاد منها استفادة طيبة، وكانت شجاعته ورباطة جأشه في مواجهة خطر حقيقي فعلاً تستحق بالتأكيد الثناء الحار.

وأرى أن يوضع إكليل الانتصار على جبين هانز هلفريتز لأنه أول أجنبي يدخل مدينة شبوة القديمة. ولفترة وجيزة كنت قد ارتديته أنا شخصياً بكل فخر، ولكن لم يكن أمراً حكيماً إلى أن قابلت في إحدى الليالي، في سيئون رجلاً أخبرني بالحقيقة. وفي ذلك الوقت لم أكن أعلم إلا كتاب هلفريتز المعنون (أرض بلا ظلال) الذي يصف فيه مروره على مسافة من شبوة، دون أن يدرك فيما يبدو بوضوح أنها تستحق الزيارة، وهو في طريقه إلى بيحان واليمن. ولم أعلم مغامرته اللاحقة ، وتحديث من أخبرني بها أن يقدم لي دليلاً يؤيد كلامه ذاك. وفعلاً قدم لي نسخة هدية من كتابه بالألمانية (غموض حول شبوة) ولم يكن أمامي مفر إلا الاعتراف بخطئي. وبعد ذلك أخبرني كثيراً عن مقدار فرح مجتمع حضرموت بالتنافس بين المرأة الإنجليزية والشاب الألماني، وكيف أن الأخير قد كسب الرهان بفضل الله عليه وبقليل من العون لا من ذكائه. ويبدو أنه لم يكن حزيناً على النتيجة، وربما كان لديه غرض ما يستفيد بها

فيه. إن هانز هلفريتز ليس بالتأكيد بدون أصدقاء في حضرموت. إن الحقيقة المؤكدة نفسها من إرساله نسخًا من كتبه إلى أصدقائه بالوادي تبرئه من تهمة الحقد والضغينة. وربما وجدوه أقل خطورة من الإنجليزي الذي يتبختر بكبرياء مصطنع، ويشيعون فيها جواً من اللطف والكياسة مع أنهم مولعون بحب التملك.

كان هذا كلام كثير عن مكتشف شبوة، والمتحدي الوحيد المحتمل لأسبقيته قد توفي منذ زمن طويل، ولكن يجب الإشارة إليه بإيجاز، نظراً لأن دعواه قد أحياها حديثًا السيد آر. إتش. كيرنان في كتابه الجديد: «اكتشاف الجزيرة العربية Unveiling of Arabia» وهو عبارة عن تاريخ لاستكشاف شبه الجزيرة منذ أقدم العصور حتى اليوم الحاضر. ويقول: إن أدولف فون ريد، وهو عسكري ورحّالة من بافاريا، قد وصل شبوة خلال رحلة قام بها عام ١٨٤٣م. ويكرر أيضاً قصة زيارته للحافة الجنوبية من الربع الخالي، حيث قام هناك برمي قلة من النحاس ورنها نصف كيلو لأبعد مسافة يستطيعها في الرمال وشاهد كيف أن الرصاص يغرق في الرمال حتى بعد حوالي خمس دقائق إلى «أن اختفى طرف الحبل في قبر يبلع كل شيء». وكما رأينا بالفعل من قبل، فإن سيارتين اثنتين محملتين بأحمال ثقيلة قد عبرتا الآن بأمان فوق سطح ذلك «القبر الذي يبلع كل شيء». وفي العصور الغابرة، عندما كانت الجزيرة العربية غير معروفة إلا قليلاً لدرجة أنه قد يكون من الحماقة أن لا تصدق الروايات الخرافية التي يحكيها الرحّالة العائدون من ذلك البلد، ربما كان يوجد أناس ذوو مكانة مرموقة مستعدون لتأييد أو غير مستعدين لدحض قصة فون ريد. ولكن وجهة النظر المقبولة بصورة عامة اليوم، التي تعود إلى تاريخ كتابة الدكتور هوجارث في إيجاز رائع في بداية القرن الحالي، تقول: إن قصة أدولف فون ريد غير جديرة بالتصديق بقدر ما يزعم أنه قد اخترق الطرف الغربي من وادي «دوعن»؛ ولذلك يجب رفض هذا الادعاء، ومما يثير الدهشة والاستغراب إلى حد ما أن يتم إحياؤه وتجديده دونما تقديم أي دليل جديد عليه.

ولا يبقى لي إلا أن أختتم مسح أراضي شبوة بإشارة موجزة لما كان لا يزال في عداد المستقبل عندما ركبت سيارتي وغادرت آثارها في ١٢ أغسطس. وعند وصولي إلى شبام أفادوني أن شاباً إنجليزياً، يعتزم زيارة شبوة، كان مقيماً في استراحة «العجم» بضاحية السحيل. وفي الوقت المناسب قابلت السيد نورمان بيرن الذي كنت أعرفه سابقاً من اجتماع وحيد عقد في لندن العام السابق ومن وصفه، الذي نشر في جريدة التايمز، لرحلة بالإبل في الصحراء قبل بضع سنوات مضت. وكانت سلطات عدن قد زودته بجميع اللوازم الضرورية والتزكيات إلى سلطان شبام والناس المهمين الآخرين. وكانت التجهيزات لرحلته تجري في تقدم نشط في تلك الأيام، على الرغم أنني كنت قد اندهشت قليلاً عندما أخبرني أنه من الناحية العملية لا يعرف أي كلمة باللغة العربية، ولم يتم تزويده بما يكفي من الأموال، وهذه مسألة خطيرة نسبياً في بلد مثل الجزيرة العربية. وقام سلطان شبام بتجهيز عدد قليل من الإبل مع رعاتها البدو -كلهم قالوا: إنهم كانوا جماعة من ستة أو سبعة رجال، بما فيهم بيرن نفسه وخادمه العدني- لتوصيله إلى شبوة والعودة منها نظير ثلاثين ريالاً لكل جمل، نصفها مدفوع مقدماً والباقي يتم دفعه عند الرجوع بسلام بعد عدد محدد من الأيام في شبوة. وكان السلطان واثقاً من أن كل شيء سيسير على خير وجه. ولكن آخرين اعترفوا سراً لي أنه لن يصل شبوة أبداً أو أنه لن يسمح له بدخولها إن وصل هناك، وانطلق بيرن وجماعته في الرحلة من شبام. ولقد رأيتهم بالليل في «هينن» عندما عدت إلى شبام لأجل رحلتي إلى المكلا.

وفي الصباح التالي انطلق مسافراً في الصحراء، حيث أخذه مرشدوه على طول درب «العبْر»، وليس لطريق شبوة العادي، لسبب ما بلا تفسير. وقد وصل إلى نقطة وراء قرية «خويران» الصغيرة بقليل. وهناك، وبينما كان يتجول في أرجاء المكان لالتقاط الصور وتحديد الاتجاهات، تركه مرشدوه، الذين أخذوا معهم أيضاً خدمه

حيث هددوه بالقتل في ذلك الوقت والمكان، إن هو رفض الذهاب معهم. وسرعان ما أدرك بيرن، وهو مهجور بالصحراء ولا يعلم أي موقع لبئر قد يكون موجوداً هناك، وبلا طعام أو ماء ولا يعرف الناس ولا لغتهم، إنه في موقف خطير، وقرر بحكمة أن يمشي عائداً تجاه وادي حضرموت، ولحسن حظه صادفته جماعة من الحطّابين العائدين من الصحراء ورافقوه حتى «هينن»[1] حيث عاد في الوقت المناسب إلى الساحل في «الشحر»، وهناك استمعت لقصة محنته من لسانه نفسه على متن باخرة صغيرة كانت ستقله للعودة إلى عدن. ومنذ ذلك الحين نشر وصفاً لتجاربه هذه في مجلد بعنوان «البحث عن سبأ Quest for Sheba».

هكذا ظلت شبوة تستعصي على اختراقها تحت رعاية عدن، ولكن ذلك لم يدم طويلاً. ففي مايو ١٩٣٧م انطلقت من عدن رحلة جوية مكوّنة من أربع طائرات، يرافقها الكابتن جي. سي. هاملتون ابن اللورد بيلهافن وستنتون، والذي كان معي في لرياض تحت اسم الكولونيل آر. إي. آيه. هاملتون[2] منذ عشرين سنة مضت، متجهة إلى «بيحان» حيث قضوا الليل هناك. وفي الصباح التالي طاروا إلى شبوة، ومكثوا ساعتين بها، وعادوا عن طريق بيحان إلى عدن. وفي وقت كتابتي لهذه السطور لم تكن أي تفاصيل عن تجارب هذه البعثة قد نشرت بعد. ولكن طبقاً لتقارير صحفية مختصرة عن تلك الزيارة فقد وجد الزائرون العناكب الذئبية وهي نوع من

---

(١) هينن: من قرى حضرموت، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٤، ص٧٦٠. (المراجعون).

(٢) هو الوكيل السياسي البريطاني في الكويت وكان الكولونيل هاملتون من مرافقي فيلبي في أول رحلة رسمية قام بها داخل شبه الجزيرة العربية حينما تم بعثه على رأس بعثة ليقوم بالتقرير عن الأحوال السياسية والعسكرية داخلها وليقرب وجهات النظر بما يضمن المصالح البريطانية بين أبرز القوى السياسية وتحديداً الملك عبدالعزيز وابن رشيد والأشراف وقد نشر تقرير بعثة فيلبي وترجمه الدكتور عبدالله العثيمين. ونشره في كتاب بعنوان بعثة إلى نجد كما ترجمت رحلة هاملتون إلى اللغة العربية، تحت عنوان، يوميات هاملتون عن رحلته إلى نجد ١٣٣٥-١٩٩٧م، قام بهذه الترجمة عصام ضياء الدين السيد علي. ضمن بحوث الكتاب السنوي الأول، للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، ص ص ٧٥-١٥٢، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤٠هـ. (المراجعون).

العناكب الكبيرة وفيرة بصورة مزعجة في بيحان وعثروا على مبان من الحجر الجرانيت في شبوة. هذه المباني الجرانيتية لم أرها بالتأكيد، أما بالنسبة للعناكب فدينا شهادة بليني. وعلى كل حال أعتقد أن العناكب الذئبية هذه كانت (Jerrymanders). وأتساءل بعجب كيف تمتع أصدقائي في شبوة بتلك الزيارة التي تمت، كما قالت لنا الصحف، «بناءً على طلب صريح منهم». إنني أتعجب فقط!. ففي الآونة الأخيرة (وبالتحديد في فبراير ١٩٤٨م) كان شيخ شبوة -عندما كان بمكة للحج- قد أعطاني رواية مختلفة نسبياً لهذه القصة، حيث قال: إن رسولاً قد وصل على متن بعير من بيحان ومعه خطاب من الشريف المحلي يعلن فيه الزيارة الجوية المحتملة ويضمن براءة الغرض منها. وبعد وصول الرسول بيوم جاءت الطائرات لشبوة، وهبطت في السهل الواقع إلى الغرب من ضريح ابن يوسف. وكان معظم الناس غائبين عن القرية في المراعي، ولكن بعض أولئك الحاضرين أتوا لرؤية الزوار. وكان شريف بيحان يعمل كمتحدث رسمي لهم، وقام الزوار البريطانيون بزيارة حافة حقل الآثار، على الرغم من أنهم لم يروا المعبد الذي رأيته أنا. ومن الواضح أنه لم تقدم لهم أي ضيافة، ولا حتى قهوة. وبعد وقت وجيز طاروا عائدين من حيث أتوا، بينما بدأ أهل شبوة -لتفادي مثل هذه التطفلات في المستقبل- العمل في وضع أكوام من الحجارة في السهل المنبسط حتى يكون هبوط الطائرات أكثر إثارة والتعليق على ذلك ليس ضرورياً بكل تأكيد، «فأنا أروي القصة التي سمعتها تروى». ومع ذلك ما زال يحدونا أمل في أن تنشر يوماً ما صور شبوة التي أخذت من الجو.